وزارة التربية

مبادئ التفكير الفلسفي

للصف الثاني عشر (أدبي)

الطبعة الثالثة

المرحلة الثانوية

منتديات
ياكويت
www.Ykuwait.net
أسرة واحدة بترابط الأعضاء

الطبعة الثالثة
١٤٣٢ - ١٤٣٣ هـ
٢٠١١ / ٢٠١٢م

تأليف
أ. د. إمام عبدالفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت
(مشرفاً)

د. حسين علي حسن
مدرس بكلية الآداب
جامعة الكويت

رضا أحمد أبو حسين
موجه فني
منطقة الفروانية التعليمية

حسن حسين أحمد
موجه أول
منطقة الجهراء التعليمية

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لوزارة التربية قطاع البحوث التربوية والمناهج
إدارة تطوير المناهج

وزارة التربية

مبادئ التفكير الفلسفي

للصف الثاني عشر (أدبي)

الطبعة الأولى: ٢٠٠٠ - ٢٠٠١م
٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م
الطبعة الثانية: ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م
٢٠١٠ - ٢٠١١م
الطبعة الثالثة: ٢٠١١ - ٢٠١٢م

لجنة المواءمة

د. سعود هلال الحربي	أ. ماجد سلطان فرج
أ. علي أكرم مرتضى	أ. نافع محمد المطيري
أ. باسمة	أ. نايفة حسين العجمي

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح

أمير دولة الكويت

سمو الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح

ولي عهد دولة الكويت

المحتوى

المقدمة ١١

الباب الأول: مدخل إلى التفكير الفلسفي:

الفصل الأول: نشأة التفكير الفلسفي ١٥

الفصل الثاني: الفلسفة .. والعلم ١٩

الباب الثاني: نظرية المعرفة:

مقدمة ٢٩

الفصل الأول: مصادر المعرفة ٣٣

الفصل الثاني: إمكان المعرفة ٤٥

الفصل الثالث: طبيعة المعرفة ٥٥

الباب الثالث: الأخلاق:

الفصل الأول: أسس دراسة الأخلاق ٦٩

الفصل الثاني: القيم الكبرى والعلاقات بينها ٧٣

الفصل الثالث: الإنسان كائن أخلاقي ٧٧

الفصل الرابع: مصادر معرفة الخير ٧٩

الفصل الخامس: مصادر الإلزام الخلقي والمسؤولية الأخلاقية ٨٥

الفصل السادس: قضايا فلسفية ٨٩

الباب الرابع: المنطق:

تمهيد (المنطق) ١٠٧

الفصل الأول: الحدود المنطقية ١١٥

الفصل الثاني: القضايا المنطقية ١٢٣

الفصل الثالث: الاستدلال ١٢٩

المقدمة

هذا كتاب في «مبادئ التفكير الفلسفي» في أربعة أبواب تشتمل على أربعة عشر فصلاً، توخينا فيه التبسيط والوضوح، والبعد عن التعقيد والغموض بقدر المستطاع.

عرضنا في الباب الأول: «مدخلاً إلى التفكير الفلسفي» في فصلين تحدثنا في الفصل الأول عن معنى الفلسفة من حيث الاشتقاق اللغوي، ثم المعنى الاصطلاحي بين المذاهب المختلفة ثانياً، ثم عرضنا الخلاف الذي نشب بين مؤرخي الفلسفة حول نشأتها: أكانت في بلاد اليونان على يد «طاليس» أم أنها بدأت في بلاد الشرق القديم: مصر وفارس والهند والصين وغيرها، وناقشنا بإيجاز حجج كل فريق.ثم تحدثنا في الفصل الثاني عن الفلسفة والعلم من حيث معنى العلم والعلاقة التاريخية بين الفلسفة والعلم ثم نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما من حيث الموضوع والمنهج والارتباط التاريخي على مرّ العصور.

أما الباب الثاني: فقد تناولنا فيه «نظرية المعرفة» من زواياها المختلفة: مصادر المعرفة – في الفصل الأول – عند التجريبيين والعقليين والحدسيين والبرجماتيين وإمكان المعرفة – في الفصل الثاني – حيث تحدثنا عن الشك بنوعيه: المذهبي والمنهجي، ورفضنا الأول وأبقينا على الثاني. أما الفصل الثالث فقد تحدثنا فيه عن طبيعة المعرفة لاسيما عند المثاليين والواقعيين.

أما الباب الثالث: فقد دار حول « الأخلاق.. » تحدثنا في الفصل الأول عن أسس دراسة الأخلاق، وفي الفصل الثاني القيم الكبرى والعلاقات بينها، وفي الفصل الثالث عن أن الإنسان كائن أخلاقي وفي الفصل الرابع عن مصادر معرفة الخير وفي الفصل الخامس عن مصادر الإلزام الخلقي والمسؤولية الأخلاقية وفي الفصل السادس عن قضايا الحرية الإنسانية.

أما الباب الرابع والأخير: فقد دار حول المنطق، فكان الفصل الأول عن الحدود المنطقية وفي الفصل الثاني عن القضايا المنطقية أما في الفصل الثالث فموضوعه الاستدلال.

وقد حرصنا على أن نورد في نهاية كل باب مجموعة من الأسئلة المتنوعة ومجموعة مختارة من المصادر والمراجع التي يمكن أن يستعين بها الطالب والمعلم معاً، كما حرصنا أيضاً على أن نقدم في كل باب نماذج مقترحة من الأنشطة التي يمكن أن يقوم بها الطالب مع زملائه بإشراف معلمه.

ونأمل – في النهاية – أن نكون قد وفقنا في تقديم «مبادئ التفكير الفلسفي» في صورة واضحة خالية من الغموض والتعقيد.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد

الباب الأول

مدخل
إلى التفكير الفلسفي

- الفصل الأول: نشأة التفكير الفلسفي.
- الفصل الثاني: الفلسفة .. والعلم.

الفصل الأول

نشأة التفكير الفلسفي

١ - معنى الفلسفة

ليست الفلسفة غريبة عنك أو بعيدة عن حياتك، وإنما هي قريبة منك، لأنها تثير تساؤلات، وتطرح أسئلة من صميم هذه الحياة، فلا شك أنك كثيراً ما سألت نفسك هذه الأسئلة الآتية كلها أو معظمها: هل هذا الكون الذي نعيش فيه عبارة عن مادة ميتة جامدة فحسب، أم أنه يحوي عناصر أخرى غير مادية؟ أهو يخضع لقوانين آلية حتمية صارمة، أم أنه يتضمن خطة وغاية أو غرضاً وهدفاً؟ وما المقصود بالمادة..؟ هل عقلي الذي يفكر الآن ويتعجب ويدهش ويتخيل ويتصور.. إلخ هو مجرد «مادة» أو خلايا في الدماغ أو مجموعة من الذرات التي تؤدي وظيفة من وظائف الجسم فحسب أم أنه شيء مختلف عن ذلك أتم الاختلاف؟ إني إنسان حي: فما معنى الحياة..؟ وما الفارق بيني وبين الكائنات الحية الأخرى؟

وهل معنى هذه الأسئلة أني قادر على طرح أيّ سؤال، وهل من الممكن أن أجد الإجابة عن كل سؤال أطرحه، وأن أعرف كل شيء، أم أن هناك حدوداً لمعرفتي؟ وإن كانت الأخيرة فما حدود هذه المعرفة...؟ وما وسائلنا إليها؟

العالم من حولي ملآن بالموضوعات الجميلة سواء أكانت طبيعية أم فنية: فبعض المنازل والمناظر في مدينتي أو مدرستي جميل وبعضها قبيح، فما الجمال وما القبح؟ وما هو ذلك الشيء الذي نستمتع به حين نستمع إلى قطعة من الموسيقى أو قصيدة من الشعر أو ننظر إلى لوحة فنية..؟ وما الذي نعجب به في المباني أو في المتاحف أو المعابد والأماكن الأثرية؟ إني معجب بغروب الشمس ورؤية القمر وسط السحاب، وبالأزهار والورود، وأوراق الخريف، وخرير المياه، وانحدار الشلالات - أكان من الممكن أن تكون الطبيعة جميلة ما لم تكن هناك عين ترى، وأذن تسمع، وذهن يقدّر..؟

إني أرى بعض الناس يكافحون الظلم والعنف والقسوة، وإني لشغوف بمعرفة العدل والظلم والرحمة، والوقوف على الأسباب التي تجعل الناس يتصارعون ويقتتلون ويستعبد بعضهم بعضاً.

وهذه الأسئلة كلها تمثل مشكلات فلسفية، وطرحها والتفكير فيها، وإمعان النظر، ودراستها بطريقة منظمة في محاولة للوصول إلى إجابة عنها: تلك هي الفلسفة.

فالمذاهب المادية والمثالية والروحية والطبيعية... إلخ هي كلها محاولات للإجابة عن الأسئلة السابقة. ولا شك أن الإنسان العادي يسأل هذه الأسئلة ويجيب عنها بطريقته الخاصة البسيطة وربما الساذجة، ولهذا قيل: إن لكل إنسان منا فلسفته الخاصة أراد أم لم يرد، وذلك يعني أن لكل منا مسلكه الخاص في الحياة،

ونظرته إلى الكون والناس وقيمه الخاصة، وتقديره للأمور، وزاوية معينة يحكم منها على أحداث الحياة، وليست الفلسفة، بصفة عامة، سوى هذه النظرة الشاملة، والفارق بينها وبين فلسفة رجل الشارع، إن نظرة الفيلسوف أشد عمقاً وترابطاً وتنظيماً وتماسكاً وصراحة، فضلاً عن أنها توضع في لغة اصطلاحية خاصة.

(أ) التعريف اللفظي:

لكن ما المعنى اللغوي لكلمة «فلسفة» philosophy؟ لاحظ أن اللفظ واحد في جميع اللغات، ذلك لأن أصل الكلمة يوناني، فهي مشتقة من مقطعين هما philos بمعنى حب و sophia بمعنى حكمة، فالفلسفة هي إذن «محبة الحكمة»، والحكمة تعني لدى اليونانيين المعرفة بكل ألوانها وأشكالها، والمحبة تعني التحرك والاقبال، وليس الشعور والإحساس فقط. وهكذا فإن الفلسفة، أي محبة الحكمة، تعني الإقبال نحو التزود بالمعرفة، والفيلسوف هو «محب الحكمة»، وكان الفيلسوف اليوناني فيثاغورس pythagorac (٥٨٢- ٥٠٠ ق.م) هو أول من استخدم هذا اللفظ حين قال عن نفسه أنه محب للحكمة أي فيلسوف، ثم جاء سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م)، وأطلق على نفسه لقب فيلسوف أي محب للحكمة تمييزاً لنفسه عن طائفة السوفسطائيين sophists (أي الحكماء بالفعل)، وقال عبارته الشهيرة: «كلا! لن أسميهم حكماء، لأن الحكمة اسم لا يضاف إلا إلى الله وحده، لكني أسميهم محبي الحكمة، أعني فلاسفة، وذلك هو اللقب المتواضع الذي يناسبهم».

(ب) التعريف الاصطلاحي:

غير أن المعنى الاصطلاحي للفلسفة كان يختلف باختلاف العصور والمذاهب الفلسفية المتنوعة، فقد حصرها سقراط في دراسة الحياة الأخلاقية، وذهب إلى أن الحياة التي لا يتم فحصها غير جديرة بأن يحياها الإنسان، كما ذهب «شيشرون» إلى أن الفلسفة هي المدبرة لحياة الإنسان بما تقدمه له من قواعد السلوك وتعريفه معاني الحق والواجب، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وما ينبغي أن يتحلى به أو يتخلى عنه بحيث يسلك مع أقرانه من البشر المسلك الذي يلائم قواعد الخلق القويم والسلوك المستقيم.

غير أن هذا المعنى الضيق الذي يحصر الفلسفة في نطاق الأخلاق اتسع عند أفلاطون وأرسطو بحيث أصبحت الفلسفة دراسة للكون ولكل مناحي الحياة الإنسانية، ومحاولة للوصول إلى الحقيقة في كل مجال من هذه المجالات بغض النظر عن المنافع العملية المترتبة على معرفة الحقيقة، ثم اهتمت في العصور الوسطى بالبرهنة على صحة القضايا الدينية، وجود الله، وخلود النفس... إلخ والتوفيق بين العقل والنقل أو الحكمة والشريعة - على حد تعبير ابن رشد.

أما في الفلسفة المعاصرة فقد بدأت تظهر - في أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي - نزعة عملية واضحة تسود التفكير الأمريكي هي التي سميت باسم المذهب العملي أو البرجماتية pragmatism

التي رأى أحد أعلامها «وليم جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠» أن الفلسفة ليست إلا رجلا يفكر بقصد تحقيق منفعة عملية ينشد تحقيقها، أي أنها ليست بحثاً في مشكلات نظرية وقضايا تأملية، بل هي التفكير في تحقيق المنافع العملية. وكذلك ذهب «ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣» إلى القول بأن الفلاسفة قد دأبوا على تفسير العالم بطرق شتى، ولكن مهمة الفلسفة - في اعتقاده - هي العمل على تغيير العالم، وتعديل النظم القائمة وتخليص الإنسان من الظلم وطغيان الخرافات. كما ظهرت إلى جانب البرجماتية، والماركسية مذاهب فلسفية أخرى كثيرة، كالفلسفة التحليلية، والوضعية المنطقية، والوجودية... إلخ وتسعى كل منها إلى تعريف الفلسفة تعريفاً خاصاً. فكانت الوجودية، مثلاً، صرخة لإنقاذ الفرد من طغيان الجماعة وسيطرة التقاليد، واهتمت بموضوعات مستمدة من الذات البشرية مباشرة: كالحرية، واتخاذ القرار، والمسؤولية، والتناهي والإثم، والقلق، والذات الحقة والذات الزائفة، والحب، والجنس، والموت والألم، والعذاب... إلخ لأن هذه الموضوعات في نظرهم هي التي تشكل جوهر الموجود البشري، وتميزه عن غيره من الموجودات الأخرى، وهكذا كانت أعظم موضوعات الفلسفة الوجودية وأكثرها تألقاً هي «الحياة العاطفية للإنسان» بصفة عامة.

- هل تستطيع أن تضرب أمثلة لمشكلات نظرية صادفتك في حياتك العملية؟
- اكتب مقالاً في مجلتك المدرسية عن أسباب تعدد التعريفات الفلسفية.

٢ - نشأة الفلسفة

اختلف مؤرخو الفلسفة حول المكان الذي نشأت فيه لأول مرة، فذهب فريق منهم إلى القول بأنها نشأت في بلاد اليونان، وأن «طاليس» في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد هو أول الفلاسفة، أما قدماء المصريين فإنهم لم يعرفوا مثل هذا اللون من التفكير النظري فاتجه تفكيرهم - في الأعم الأغلب - نحو موضوعات دينية وعملية، وقد ذهب إلى هذا الرأي أرسطو قديماً وبرتراند رسل حديثاً، وحجتهم في ذلك يمكن تلخيصها فيما يلي:

(١) اعتمد هذا الفريق على تعريف الفلسفة بأنها تفكير مجرد، وسعيٌ إلى طلب المعرفة لذاتها، بهدف الوصول إلى الحقيقة بغض النظر عن أية منفعة عملية أو دينية.

(٢) اختلط التفكير في الشرق بالعقيدة الدينية التي سيطرت على حياتهم ونظمت سلوكهم، فاهتموا بالتفكير في الألوهية والبعث والخلود، والخير والشر، والمبدأ والمصير في حين أن التفكير الفلسفي اليوناني كان يسعى إلى المعرفة للمعرفة، إذ اتجه العقل عندهم إلى الكشف عن الحقيقة لذاتها بعيداً عن أية اهتمامات دينية.

(٣) إذا كان المصريون مثلاً قد اهتموا بالعلوم فقد كان ذلك لأغراض عملية ودينية فحسب، فهم عندما درسوا علم الكيمياء لم يفعلوا ذلك إلا ليستعينوا به في تحنيط الجثث، واستخراج العطور والأصباغ والألوان يزينون بها جدران المعابد والمدافن، دون الاهتمام بتأسيس القواعد النظرية للعلم.

(٤) إذا كان عند الشرقيين أي قدر من التفكير العقلي فهو وليد معتقداتهم الدينية (كالخلود والبعث والحساب... إلخ). فلم يستطيعوا فصل الفلسفة عن الدين، ومعالجة موضوعاتها لذاتها. أما الفلسفة «معجزة اليونان لأنهم ابتكروها دون أن يعتمدوا على دين أو عرف بل استندوا إلى منطق العقل وحده».

أما الفريق الثاني فقد ذهب إلى أن الفلسفة ظهرت أولا عند قدماء المصريين وحضارات الشرق القديمة، ويمكن تلخيص حجتهم في ذلك في النقاط الآتية:

(١) الواقع أن الخلاف ينشأ أساساً من اختلاف النظر إلى الفلسفة. فتضييق معناها هو الذي حال دون إطلاقها على حكمة الشرق القديم، ولو اتسع تعريف الفلسفة حتى شمل الحياة العملية والروحية، لأمكن القول بأنها نشأت بين شعوب الشرق القديم، وهذا التضييق ليس إلا تعبيراً عن تعصب الغربيين لحضارتهم.

(٢) إذا كانت الفلسفة في الصين، مثلاً، قد انحصرت في نطاق الأخلاق، والمثل الأعلى لسلوك الإنسان كما هو الحال عند «كونفوشيوس»، فقد كانت كذلك عند «سقراط» و«شيشرون» وما قال به «الإخوة الفيثاغوريون» ومع ذلك فقد كانوا جميعاً فلاسفة. فلم لا نقول إن «كونفوشيوس» و«مانشيوس» و «بتاح حوتب»... إلخ كلهم فلاسفة، رغم ميولهم العملية..؟

(٣) إن امتزاج التفكير الفلسفي بالتفكير الديني عند قدماء الشرقيين لا ينفي عنهم الاهتمام بالفكر النظري، فقد حدث هذا الامتزاج في شتى عصور الإنسانية، لاسيما في العصور الوسطى عندما انشغلت الفلسفة بمشكلات دينية خالصة، ومع ذلك فإن هذا الانشغال لم يمنع من إطلاق لقب الفلاسفة عليهم.

(٤) هناك الكثير من الأفكار الفلسفية التي ظهرت في حضارة الشرق القديم تردد صداها بعد ذلك عند فلاسفة اليونان، فإذا كان طاليس أول الفلاسفة ذهب إلى أن «الماء» هو أصل الأشياء جميعاً، فإن هذه الفكرة نفسها سبق أن ظهرت عند المصريين والبابليين، وقل مثل ذلك في فكرة التناسخ التي ظهرت عند قدماء الهنود وأخذها الفيثاغوريون عنهم.

(٥) أما في مجال العلم، فلا شك أن نوره قد انبثق من الشرق القديم، فقد كان المصريون أول من ابتدع الرياضيات واخترع الميكانيكا، وابتكر الكيمياء، وأنشأ علم الطب، وأول من اخترع الكتابة وأقام المكتبات ودور الكتب، كما كان البابليون والكلدانيون أول من درس أجرام السماء، وأنشأ علم الفلك، وليس هناك علم من هذه العلوم لا يعتمد على أساس نظري: فالجانب العملي لا يمكن أن ينفصل عن الجانب النظري.

«الفلسفة ... والعلم»

أولاً: معنى العلم

كلمة «العلم» في اللغة العربية تحمل معنيين مختلفين الأول: معنى واسع يرادف المعرفة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤ - طه) أي معرفة، أياً كان ميدان هذه المعرفة، ونحن نقول في حياتنا اليومية: «لا علم لي بهذا الموضوع» أي لا أعرف عنه شيئاً، والثاني: معنى ضيق هو الذي يرادف العلم التجريبي science على نحو ما يتمثل في «علم الطبيعة» و «علم الحياة» والكيمياء..إلخ. وهو ضرب من المعرفة المنظمة التي تستهدف الكشف عن أسرار ظواهر الطبيعة، بالوصول إلى القوانين التي تتحكم في مسارها، ومن ثم تمكننا من السيطرة على الطبيعة لصالح الإنسان، ومن هنا ذهب «بيكون» إلى أن «المعرفة قوة» لأنني لو عرفت القوانين التي تتحكم في ظاهرة معينة استطعت أن استخدمها لتنمية حياة البشر: وهذا هو المعنى الذي نقصده هنا من كلمة «علم».

يتميز العلم بأربع خصائص أساسية يمكن أن نوجزها فيما يلي:

(١) دراسة الظواهر الحسية:

إن الدراسة العلمية تنصب على ظواهر الطبيعة أو الوقائع الحسية، فلا شأن للعلم بعالم ما فوق الحس، وإنما هو يدرس ظواهر محسوسة ملموسة أمامنا: ظاهرة المطر، ظاهرة الغليان ارتفاع الحرارة أو انخفاضها، النبات، ونموه، طبقات الأرض.. إلخ، فهو باختصار يقوم بتفسير ظواهر الكون المادية الحسية عن طريق «استقراء» هذه الظواهر (لاحظ أن كلمة الاستقراء تعني حرفياً «قرأ بإمعان» فالبحث العلمي هو قراءة دقيقة لظواهر الطبيعة).

(٢) تحويل الكيف إلى كم:

يتميز العلم بأنه يحيل الكيف إلى كم، والكيف هو وقع الأشياء على الحواس. فطعم الشاي على لسان شاربه «كيف»، وملمس الماء على أطراف الأصابع «كيف»، واللون الأخضر الذي تراه العين «كيف»، والصوت العذب في أذن السامع «كيف» ... إلخ وهذه كلها كيفيات نجدها في حياتنا اليومية، لكن العلم لا يكتفي بهذه الإحساسات الشخصية الذاتية، فالعلم موضوعي، ولهذا تراه يشترط تحويل إدراكنا الكيفي للأشياء إلى إدراك كمي (والكم هو ما يمكن لأي إنسان قياسه). فإذا ما تحدثنا عن الحار والبارد والدافئ، فإن علم الطبيعة يحولها إلى درجات يمكن قياسها بالأرقام، حتى أن البارد والدافئ يصبح «درجة حرارة» معينة، كما يرجع الضوء إلى طول الموجات أو قصرها.... والصوت إلى سعة الذبذبات... وهكذا.

(٣) التراكم

المعرفة العلمية «تراكمية». فكل جيل من العلماء بما يكتشف من قوانين يشيد طابقاً في البناء العلمي، ثم يأتي الجيل الثاني ليكتشف عن مجموعة أخرى من القوانين تكون أكثر شمولاً في نطاقها، ولهذا يشبهون المعرفة العلمية بالبناء الذي يقام طابقاً فوق طابق مع فارق أساسي هو أن سكان هذا البناء ينتقلون دوماً إلى الطابق الأعلى، فهم كلما شيدوا جديداً انتقلوا إليه، وتركوا الطوابق السفلى لتكون مجرد أساس يرتكز عليه البناء.

(٤) المنهج التجريبي:

يستخدم العلم في دراسته للظواهر منهج البحث التجريبي، وهو أساس من أسس الدراسة العلمية بل هو العنصر الثابت في كل معرفة علمية، لأن مضمون هذه المعرفة والنتائج التي نصل إليها تتغير على نحو مستمر، أما المنهج فيظل ثابتاً مهما تغير المضمون والنتائج.

ولهذا المنهج أربع خطوات نوجزها فيما يلي:

أ - الملاحظة المقصودة أو العلمية: وهي أولى خطوات البحث العلمي وتتميز بأنها مقصودة ويهدف العالم من خلالها إلى الكشف عن تفصيلات الظاهرة والعلاقات الخفية التي توجد بين عناصرها أو بينها وبين بعض الظواهر الأخرى، بينما تتميز ملاحظاتنا اليومية العادية بأنها عابرة وغير مقصودة.

وعلى الرغم من الفروق الجوهرية بين الملاحظة العابرة والملاحظة العلمية فإنه كثيراً ما تتحول الملاحظة العابرة إلى ملاحظة علمية، «فنيوتن» من ملاحظته العابرة لسقوط التفاحة اكتشف قانون الجاذبية، وتاريخ العلم ملآن بالملاحظات التي أدت إلى اكتشاف قوانين هامة، ولكن يشترط أن تمثل هذه الملاحظات بداية لدراسة علمية.

- اذكر بعض الأمثلة للملاحظة العابرة التي تعرض للإنسان العادي في حياته اليومية.
- فرق بين الملاحظة العابرة والملاحظة العلمية، مستخلصاً أهم شروط الملاحظة العلمية.

ب - وضع الفروض: إذا ما انتهى العالم من ملاحظة الظواهر وتسجيل تفصيلاتها، وتصنيف ما يمكن تصنيفه منها فإنه يفرض الفرض الذي يفسرها. فإذا أثبتت التجربة صحة تفسيره، أصبح فرضه حقيقة واقعة، وإن كذبت التجربة هذا الفرض افترض سبباً آخر حتى يصل إلى الحقيقة وفق قواعد عملية لاختبار الفروض. فالفرض في تعريفه هو تفسير مؤقت لظاهرة موضوع البحث.

ج - إجراء التجارب: وهو لب المنهج «التجريبي» الذي أخذ منه اسمه.

فالملاحظة وحدها تعجز عن تحليل الشيء إلى عناصره أو بيان نسب هذه العناصر. فإذا كانت تطلعنا على أن الماء يغلي فهي لا يمكن أن ترشدنا إلى أنه مركب من عنصرين هما الأكسوجين والهيدروجين بنسبة ١ إلى ٢.

د - الوصول إلى قانون: الخصائص السابقة من ملاحظة ومشاهدة وإجراء تجارب... إلخ، لن تكون لها قيمة - رغم أهميتها - ما لم تتوجها خطوة حاسمة. هي الوصول إلى قانون «فلاعلم بغير قانون». فإذا كان العلم يبدأ من ظواهر جزئية فإنه لا يكتفي بها ويستهدف الخروج منها إلى قانون عام. فالقانون العلمي لا يعد تفسيراً للأمثلة الظاهرة التي أجرى عليها العالم أبحاثه، وإنما هو تفسير للظاهرة - في كل أمثلتها - فهو يمثل القانون العام لها. وهذا هو الفارق بين ربة المنزل التي تغلي الماء عشرات المرات وبين العالم، فهي تقف عند الظاهرة الجزئية ولا تخرج منها إلى قانون عام، ولهذا فمهما أجرت من «تجارب» فهي لن تكون عالمة!

وعلينا أن ننتبه جيداً إلى الفرق بين الوصول إلى القوانين التي هي جوهر العلم، وبين الجانب التطبيقي لهذه القوانين أو ما يسمى بالتكنولوجيا أو التطبيقات التقنية للعلم، التي تحيل هذه القوانين إلى أجهزة ومخترعات، وآلات تيسر حياة الإنسان وتعمل على رفاهية البشر.

ثانياً: الاتفاق والاختلاف بين الفلسفة والعلم:

هناك جوانب تتفق فيها الفلسفة مع العلم رغم ما بينهما من فروق واختلافات، ويمكن أن نوجز أهم أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في النقاط الآتية:

(١) تتفق الفلسفة مع العلم في دراسة موضوع واحد هو الكون والإنسان، لكن نظرة كل منهما إلى هذا الموضوع مختلفة، ففي حين أن العلم يقسّم موضوعه إلى فروع يقوم أحد العلوم بدراستها: فيتولى علم الفلك دراسة الأجرام السماوية بقصد الوقوف على القوانين التي تتحكم فيها، ويدرس علم النبات مملكة النبات وعلم الجيولوجيا القشرة الأرضية - في حين أن العلم يقسّم الموضوع إلى شرائح على هذا النحو فإن الفلسفة تدرس الموضوع «ككل»، ولهذا فهي تفضل أن تقول إن موضوعها هو «علم الوجود بما هو موجود» أي أيا كان نوع الموجودات.

(٢) من نقاط الاختلاف الأساسية بين الفلسفة والعلم: منهج البحث الذي يسير عليه كل منهما فإذا كان العلم قد اتخذ سبيل المنهج التجريبي الاستقرائي، فإن الفلسفة تعتمد على منهج النظر العقلي والاستدلال المنطقي، وتقيم حججها على منطق العقل وحده الذي تحتكم إليه في كل خطوة من خطوات سيرها دون أن تلجأ إلى الوقائع الحسية التي كثيراً ما تكون موضع شك عند بعض الفلاسفة. ومع ذلك فإن الفلسفة والعلم يتفقان على ضرورة وجود منهج للبحث.

(٣) نقطة البدء في التفكير العلمي هي ملاحظة ما في هذا العالم من جزئيات محسوسة، فالعلم يعتمد في حقائقه على التجربة، ويستبعد ما عداها، أما الفلسفة فتعتمد في حقائقها على العقل، وهي تمثل وجهة نظر الفيلسوف في الحياة، وتتضمن المبادئ العامة التي يبني عليها الفرد معتقداته الخلقية والاجتماعية والفكرية، لذلك يقال إن حركة سير الفكر في العلم تبدأ من الخارج (أي من الظواهر الحسية) في حين أن حركة سير الفكر في الفلسفة تبدأ من الداخل، أي من التأمل العقلي للفيلسوف فيما يدور حوله من مشكلات تتعلق بالإنسان والوجود والمعرفة.

(٤) إذا كان العلم يهدف إلى الكشف عن القوانين التي تتحكم في ظواهر الطبيعة فإن الفلسفة لا تسعى إلى اكتشاف قوانين بل الكشف عن الحقيقة في ذاتها ولذاتها سواء حقيقة العالم أو الإنسان أو العلاقة بينهما، أو علاقة الإنسان بأقرانه من البشر في صورة كلية شاملة دون أن تهتم كثيراً بالجزئيات.

(٥) يتفق العلم مع الفلسفة في البحث عن العلل، غير أن العلم يسعى إلى الكشف عن العلل القريبة أو المباشرة التي تحدد لنا أسباب حدوث الظاهرة ومسارها: علة غليان الماء، أو سقوط المطر، أو تمدد الحديد...إلخ، أما الفلسفة فهي تسعى إلى الوصول إلى العلل البعيدة والأسباب النهائية أو المطلقة، بل إنها تحاول في كثير من الأحيان رد العلل المتعددة في العالم إلى علة واحدة كلية.

(٦) إذا كان العلم يدرس الظواهر الحسية الموجودة أمامنا في العالم فهو يدرس ما هو كائن دراسة «وصفية» عندما يصف هذه الظواهر، أما الفلسفة فمن مباحثها «مبحث القيم» ويشمل أفرعاً تدرس ما ينبغي أن يكون لا ما هو كائن، ومن ثم فهي علوم «معيارية»، فعلم المنطق يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه التفكير السليم. وعلم الأخلاق يتناول ما ينبغي أن يكون عليه السلوك القويم، وعلم الجمال يبحث في العناصر التي ينبغي توافرها في الموضوع ليكون جميلاً، والبحث في ما «ينبغي أن يكون» هو بحث معياري NORMATIVE ولا يرتبط بالبحث العلمي الذي هو بحث «وصفي» تقريري قائم على دراسة ما هو كائن.

- ناقش مع مدرسك أمثلة أخرى للاتفاق بين العلم والفلسفة.
- اكتب مقالاً في مجلتك عن الفرق بين العلم والتكنولوجيا.

ثالثاً: فلسفة العلم في القرن العشرين:

كان من بين أقسام الفلسفة قديماً قسم يسمى «فلسفة الطبيعة» يأخذ على عاتقه تفسير ظواهر الطبيعة تفسيراً عقلياً ليضع نظرية فلسفية عن الكون بأسره، لكن عندما ظهر العلم في القرن السابع عشر وبدأ

انفصال العلوم عن أمها الفلسفة توارت «فلسفة الطبيعة» ليحل محلها الآن في القرن العشرين ما يسمى «فلسفة العلم» التي يوجد بعض الباحثين، أحياناً، بينها وبين مناهج البحث Methodology في حين أن فلسفة العلم أوسع كثيراً من «مناهج البحث» لأنها تشملها وتزيد عليها ما يسمى باللغة الشارحة للعلم Meta - Language وتقوم بتحليل المفاهيم العلمية المختلفة، وما يثار من مشكلات نتيجة لتطور العلم ومناهجه، وسوف نعرض عليك فيما يلي بعضاً منها:

(١) الاستقراء:

لا حظنا فيما سبق أن العلم يعتمد على المنهج التجريبي «الاستقرائي» غير أن فلسفة العلم المعاصر وضعت «فكرة الاستقراء» موضع البحث والمناقشة بسبب ما فيها من ثغرات، حتى أن فلاسفة العلم المعاصر نظروا إلى الاستقراء على أنه ليس منهجاً برهانياً (بما يعني أن نتائجه ليست صادقة صدقاً ضرورياً، فما المبرر العقلي الذي يجيز لنا الانتقال من دراسة مجموعة من الظواهر الجزئية (كقطع الحديد مع النار مثلاً) إلى مبدأ عام هو القانون بحيث أستطيع أن أقول في اطمئنان إن جميع قطع الحديد تتمدد بالحرارة، افرض أنني أجريت تجارب عديدة على غليان الماء، وكانت النتيجة باستمرار أنه يغلي في درجة ١٠٠ ثم يتبخر بعد ذلك، فكيف أعمم الحكم على جميع الأمثلة الأخرى التي لا أعرف عنها شيئاً؟ وكيف يشمل حكمي ما وجد في الماضي وما سوف يوجد في المستقبل؟

(٢) الحتمية:

ترتبط الحتمية بالإستقراء، فإذا كان إجراء التجارب على قطع الحديد قد كشف عن تمددها بالحرارة ولما كانت قد انتهيت من ذلك إلى حكم عام هو أن القانون لا يصدق فقط على قطع الحديد التي خضعت للتجربة بل على جميع القطع في كل مكان وزمان، فإن معنى ذلك أن صدق القانون «حتمي» وأن الحتمية هي التي تسيطر على ظواهر الطبيعة . لكن لما كان الاستقراء «ناقصاً» لأنه ينصب على عدد محدود من الجزئيات فإن القول بحتمية القانون العلمي تصبح موضع شك كبير، ومن هنا فقد ذهب «ادنجتون» إلى أنه لا يعرف أي قانون حتمي في الطبيعة، وأن القول بالحتمية ليس سوى نتيجة لمعرفة سطحية بظواهر العالم. وهكذا أصبح القانون العلمي في فلسفة العلم المعاصر صادقاً على سبيل الاحتمال المرجح فقط أي أنه من المرجح جداً أن يتمدد الحديد بالحرارة في كل زمان ومكان لكن ذلك ليس أمراً محتوماً.

(٣) العلية:

لم يعد فلاسفة العلم المعاصرون ينظرون إلى القانون العلمي على أنه يتضمن دائماً علاقة عِلّية فقد توصل علم الحياة مثلاً إلى أن «الحيوانات الثديية حيوانات فقارية»، كما حدد علماء الطبيعة سرعة

الضوء بأنها ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية، وقل مثل ذلك في القانون الثاني للديناميكا الحرارية الخاص بانتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الأقل حرارة ولا عكس لهذا المسار... إلخ. هذه القوانين ومئات غيرها لم يكن مبدأ العلّية هو الأساس في التوصل إليها، فليست القوانين العلّية كلها من قبيل «الحركة علّة الحرارة» أو «علّة وفاة فلان هو تجرعه للسم» ... إلخ، وليس معنى ذلك أنهم يتكرون مبدأ العلّية تماماً، وإنما يتكرون فقط أن يكون كل قانون علّيا، أي أن يكون القانون العلمي قائماً باستمرار على مبدأ العلّية أو يمثل تفسيراً علّياً للظواهر.

(٤) التفسير العلمي:

لم يعد التفسير العلمي محصوراً في ربط ظاهرة مجهولة وتفسيرها بظاهرة معروفة، وإنما قد يتم تفسير القانون العلمي بقانون علمي آخر، فجهد الصعود إلى قمة الجبل يحتاج إلى زيادة في التنفس، تفسره علوم الحياة والفسيولوجيا بزيادة كمية ثاني أكسيد الكربون في الدم، ويتضمن هذا التفسير أن كل قانون يعتمد على قوانين أخرى، وقد تفسر قوانين من علوم مختلفة، كما أنه قد يؤدي إلى قوانين جديدة. كما ذهب فلاسفة العلم أيضاً إلى أن القانون العلمي ليس «تفسيراً» وإنما هو «وصف» فقط لما يجري أمامنا من ظواهر الطبيعة، وهكذا اختفى «التفسير» من وظيفة العلم وحلّت محله وظيفة «الوصف».

(٥) خطوات المنهج العلمي:

من أهم ما طرأ على المنهج العلمي من تعديل في فلسفة العلم المعاصر، إعادة ترتيب خطوات هذا المنهج، فقد سبق أن ذكرنا أن هذا المنهج يبدأ بالمشاهدة والملاحظة ثم فرض الفروض، وإجراء التجارب ... إلخ، لكن المنهج العلمي المعاصر يتكر هذه الأسبقية للملاحظة على نحو ربما اختفت معه هذه الخطوة. فالمنهج العلمي المعاصر يبدأ بفرض من الفروض ثم يتحول إلى الملاحظة والتجربة بعد ذلك، فضلاً عن ظهور معان جديدة لمصطلحي «الفرض» و«الملاحظة».

وهكذا نجد أن فلسفة العلم المعاصرة تنصب على فكر العالم: كيف يفكر؟ ما خطوات سيره في بحثه؟ ما المصطلحات والمفاهيم التي يستخدمها وما معناها... إلخ.

- حاول أن تكتب مقالاً عن «اللغة الشارحة» للعلم مستعيناً بما تجده في مكتبة المدرسة من مراجع في فلسفة العلم.
- قوانين العلم حتمية. ناقش الموضوع مع مدرسك وزملائك في الفصل.
- برهن على أن قوانين العلم حتمية.

أسئلة عامة عن الباب الأول

أولاً: الأسئلة الموضوعية:

(١) اذكر صحة أو خطأ العبارات الآتية مع التعليل:

أ - يختلف معنى الفلسفة الاصطلاحي باختلاف المذاهب الفلسفية.

ب - هناك اتفاق بين المؤرخين حول المكان الذي نشأت فيه الفلسفة.

جـ - نشأ علم الكلام بسبب عوامل خارجية عن الثقافة الإسلامية.

د - الحقائق التي ينتهي إليها العلم حقائق جزئية متغيرة.

هـ - الحقائق التي ينتهي إليها الفيلسوف حقائق موضوعية ثابتة.

(٢) أكمل العبارات التالية بما يناسبها:

أ - المنهج الفلسفي منهج عقلي لاعتماده على العقل في تجريد .....

ب - المنهج الفلسفي منهج عقلي تأملي لأنه يستخدم الفكر الذاتي في دراسة .....

جـ - المنهج الفلسفي منهج تحليلي لأنه يبحث عن .....

د - الإنسان الذي يقبل على التزود بالمعرفة بكل ألوانها وصورها يسمى .....

ثانياً: الأسئلة المقالية:

(١) «لكل إنسان فلسفته الخاصة» ناقش هذه العبارة موضحاً رأيك فيها.

(٢) ظهر خلافٌ بين مؤرخي الفلسفة حول نشأتها: في بلاد اليونان أم الشرق، اذكر حجج كل فريق مع مناقشتها.

(٣) نشأ علم الكلام بسبب عوامل إسلامية خالصة.

دلل على صحة العبارة مستعيناً ببعض الأمثلة.

(٤) اذكر أمثلة لاستخدام علماء الكلام المسلمين للمنهج العقلي مبيناً رأيك فيما تقول.

(٥) اشرح معنى الكلمات الآتية بإيجاز:

الفلسفة، علم الكلام، الاستقراء، العلم، الملاحظة العابرة، العلوم المعيارية، العلوم الوصفية.

(٦) يتميز العلم بأربع خصائص أساسية - اشرحها بإيجاز.

(٧) لخص بإيجاز تطور العلاقة التاريخية بين الفلسفة والعلم.

(٨) اشرح أوجه الاتفاق والاختلاف بين الفلسفة والعلم.

(٩) اعرض لبعض المشكلات التي أثارتها فلسفة العلم المعاصر.

مراجع عامة (للباب الأول)

(١) د. توفيق الطويل «أسس الفلسفة» دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٦.

(٢) د. إمام عبدالفتاح إمام «مدخل إلى الفلسفة» مؤسسة دار الكتب بالكويت عام ١٩٩٣.

(٣) هنترميد «الفلسفة أنواعها ومشكلاتها» ترجمة د. فؤاد زكريا - دار نهضة مصر عام ١٩٦٩.

(٤) د. فؤاد زكريا «التفكير العلمي» سلسلة عالم المعرفة بالكويت العدد رقم ٣.

(٥) د. محمد صالح محمد السيد «أصالة علم الكلام» دار الثقافة والنشر والتوزيع عام ١٩٨٧

(٦) د. محمود زيدان: «الاستقراء والمنهج العلمي» مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية عام ١٩٨٠.

(٧) د. محمود قاسم «المنطق الحديث ومناهج البحث» مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٣.

الباب الثاني

نظرية المعرفة

مقدمة

الفصل الأول: مصادر المعرفة

أولاً: المذهب التجريبي

ثانياً: المذهب العقلي

ثالثاً: المذهب الحدسي

رابعاً: المذهب البرجماتي

الفصل الثاني: إمكان المعرفة

أولاً: الشك المذهبي

ثانياً: الشك المنهجي

الفصل الثالث: طبيعة المعرفة

أولاً: المذهب الواقعي

ثانياً: المذهب المثالي

نظريةُ المعرفة

مقدمة

تناولنا في الباب السابق الفلسفة من حيث تعريفها ونشأتها وعلاقتها بالعلم، وقد عرفت أن الفلسفة ليست علماً جزئياً يدرس ظاهرة محددة بل هي نشاط عقلي ذو طابع كلي، يبحث في مختلف موضوعات الفكر والحياة، بل كانت تضم حتى عصر النهضة مجمل العلوم المعروفة آنذاك كالطبيعة، والرياضيات، والفلك، والطب، والقانون... إلخ، واستخدمت في دراسة كل هذه المعارف المنهج العقلي، وبمجيء عصر النهضة وقيام الثورة الصناعية، واكتشاف آليات المنهج النظري وأصبح لكل منها منهجه الخاص الذي يتناسب مع موضوعه.

والآن يحق لك أن تتساءل: ما الذي تبقى للفلسفة بعد استقلال العلوم عنها؟

يمكننا حصر الموضوعات التي تدرسها الفلسفة في الوقت الحاضر في ثلاثة مباحث رئيسية هي: مبحث الوجود، ومبحث المعرفة، مبحث القيم، إلى جانب بعض المباحث الفرعية مثل: فلسفة العلوم، وفلسفة التاريخ، والقانون... إلخ.

وفيما يلي عرض موجز لهذه المباحث الرئيسية الثلاثة:

مباحث الفلسفة:

أولاً: مبحث الوجود (الأنطولوجيا)

ويبحث في خصائص الوجود الكلي المجرد - أو الوجود بما هو موجود - سعياً إلى وضع تفسير للوجود كوحدة مطلقة دون تحديد أو تجزئة، تاركاً للعلوم الجزئية البحث في العالم المادي المحسوس وجوانبه المختلفة.

وموضوع هذا البحث هو الإجابة عن التساؤلات التالية:

١ - هل يمكن رد الوجود إلى عنصر واحد؟

بمعنى هل الكثرة والتعدد التي نراها في الأشياء من حولنا ترتد إلى أصل واحد أم كثرة من العناصر؟

٢ - ما طبيعة الوجود؟

أي هل الوجود الذي نعيش فيه هو وجود مادي صرف أو روحي؟ أم مادي وروحي، أم هو مكون من عنصر محايد لا هو بالمادة ولا هو بالروح؟

ثانياً: نظرية المعرفة (الأبستمولوجيا)

ويقسم هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام على النحو التالي:

أ - مصادر المعرفة:

يبحث هذا القسم عن التساؤلات التالية:

١ - من أين نحصل على المعرفة - أي كيف يمكننا معرفة الأشياء من حولنا؟

٢ - ما الأدوات أو الوسائل التي تتم بها المعرفة: هل هي العقل أم الحواس أم الحدس أم وسائل أخرى؟

ب - إمكان المعرفة وحدودها:

يبحث هذا القسم عن التساؤلات التالية:

١ - هل لدى الإنسان القدرة على معرفة حقيقة الأشياء من حوله، أم أن هذه القدرة هي موضع للشك؟

٢ - إذا كانت المعرفة ممكنة، فما حدود هذا الإمكان؟

جـ - طبيعة المعرفة:

يبحث هذا القسم عن السؤال التالي:

ما طبيعة العلاقة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة أي ما بين الفكر والواقع.

ثالثاً: مبحث القيم (الأكسيولوجيا)

ويدرس هذا المبحث القيم الرئيسية الثلاث التي تقوم عليها حياة الإنسان وتتمثل فيما يلي:

قيمة الخير: ويدرسها علم الأخلاق، الذي يختص ببيان المعايير التي ينبغي أن يكون عليها السلوك لكي يتوافق مع مبادئ الخير.

قيمة الحق (الصدق): ويدرسها علم المنطق، الذي يختص ببيان القواعد التي ينبغي على الفرد اتباعها لكي يفكر تفكيراً سليماً (موضوع الباب الرابع من هذا الكتاب).

قيمة الجمال: ويدرسها علم الجمال الذي يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الشيء الجميل أي معايير التذوق الجمالي والفني.

- معتمداً على أحد المصادر المتوافرة في مكتبة المدرسة، اكتب تقريراً مختصراً عن واحد من التساؤلات التي يدور حولها مبحث الوجود.
- حاول أن تعرّف الفلسفة تعريفاً تركيبياً ينطبق على المباحث الثلاثة.

ولعلك تلاحظ أن المباحث الفلسفية السابقة تمثل المثل العليا والحاجات الإنسانية العميقة، العقلية والخلقية والجمالية، والأسئلة التي تبحثها هي أسئلة خارجة عن ميدان العلم الذي يهتم بدراسة ظواهر أو وقائع محددة من حيث خصائصها وعلاقتها ببعضها، وتبقى الأسئلة المصيرية التي ترتبط بحاجات الإنسان الفكرية والمعنوية ومشكلات وجوده وحياته من أهم مسؤوليات الفيلسوف.

نظرية المعرفة:

تختص هذه النظرية بالبحث في طبيعة المعرفة الإنسانية وتفسير ماهيتها، وتعالج بطريقة نقدية مشكلات الحواس والعقل وحدودهما ومدى قدرتهما على المعرفة أو حدود ومعايير الوثوق بما نعرف، وكيف نعرف؟ وقيمة ما نعرف.

إننا نميل إلى أن نكون متيقنين تماماً بما نعرف عن العالم، وكثيراً ما نصدم عندما نكتشف أن ما تصورناه حقيقة قد ثبت زيفه، وإذا ما تكرر حدوث ذلك فقد نتشكك في كل حقيقة.

وعلى سبيل المثال فتاريخ الأفكار الإنسانية ملآن بالنظريات التي آمن بها البعض ثم هجرت بعد أن اتضح خطؤها، فإذا كان الكثير مما اعتبر حقيقة قد ثبت بطلانه أو عدم جدواه، فكيف إذن نصل إلى معرفة نطمئن إليها، وبعبارة أخرى كيف نحصل على اليقين في المعرفة الإنسانية؟

برغم أن البدايات الأولى لما نسميه «نظرية المعرفة» قد تبلورت مع بدايات الفلسفة الحديثة على يد الفيلسوف الفرنسي «ديكارت» وفصل فيها القول على يد الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك»، ومن بعده الفيلسوف الألماني «كانت»، وبذلك تأسست نظرية المعرفة، فإن الاهتمام بها قد شغل الفلاسفة منذ الفلسفة اليونانية القديمة ولكنها لم تكن منفصلة عن المباحث الفلسفية الأخرى، فجمع بعضهم بينها وبين مبحث الوجود، وأحياناً أخرى بينها وبين علم المنطق على اعتبار أن المنطق يبحث في القوانين الصورية للتفكير الإنساني وصحة التفكير ومعايير الصدق فيه، وذهب غيرهم إلى ربطها بعلم النفس الذي يدرس العمليات الذهنية التي يقوم بها العقل في كسب معلوماته. وقد تلاشت هذه النظرة بعد أن تأسست نظرية المعرفة في العصر الحديث وأصبحت مبحثاً فلسفياً متكاملاً يجيب عن العديد من التساؤلات التي يطرحها الفلاسفة حول إمكان المعرفة، فتواجه مشكلة الشك ومصادر المعرفة، والتفرقة بين المعرفة القبلية التي تسبق التجربة، والمعرفة البعدية التي تجيء اكتساباً بعد التجربة، وتدرس الشروط التي تجعل الأحكام ممكنة والتي تبرر وصف الحقيقة بالصدق المطلق – إن كان هذا ممكناً – وتهتم بمعرفة اتصال قوى الإدراك بالشيء المدرك، وعلاقة الأشياء المدركة بالقوى التي تدركها، أي طبيعة المعرفة.

وقد مثل كل من هذه التساؤلات مبحثاً فرعياً داخل نظرية المعرفة، وهكذا يزخر تاريخ الفلسفة قديماً وحديثاً بالمذاهب الفلسفية المختلفة تجاه:

أ - مصادر المعرفة الإنسانية.

ب - إمكان المعرفة الإنسانية وحدودها.

جـ - طبيعة المعرفة الإنسانية.

مصادرُ المعرفة

المشكلة الأولى التي تتعرض لها نظرية المعرفة هي البحث عن مصدر المعرفة، ويمكن صياغة المشكلة في هذا السؤال:

من أين تأتينا المعرفة؟ أو كيف نعرف العالم من حولنا، وبأي الطرق والوسائل؟

يختلف الفلاسفة في الإجابة عن هذه الأسئلة على النحو التالي:

١ - فبعضهم يذهب إلى أن مصدر المعرفة هو الحواس، فمعارفنا مستمدة من التجربة التي نستخدم فيها الحواس الخمس، وهم أصحاب المذهب التجريبي.

٢ - بعضهم الآخر يذهب إلى أن مصدر المعرفة هو «العقل»، فالمعرفة التي تصدر عن العقل تتصف بالضرورة والعمومية، وهم أصحاب المذهب العقلي.

٣ - ويقول «الحدسيون» بمصدر آخر للمعرفة، لا هو بالتجربة ولا هو بالعقل، وإنما هو الحدس (المذهب الحدسي).

٤ - ويرجع البرجماتيون المعرفة إلى السلوك والتجربة العملية، ولهذا ينبغي أن نعرف الحقيقة بوساطة نتائجها وما تحققه من نفع للأفراد (الاتجاه البرجماتي).

أولاً: مصدر المعرفة عند التجريبيين (المذهب التجريبي)

الفكرة الأساسية في المذهب التجريبي هي أن: كل معرفتنا تنشأ عن التجربة التي ندركها مباشرة بالحواس.

ولقد اتخذ المذهب التجريبي صوراً شتى تجمع كلها على رفض التسليم بوجود أفكار فطرية موروثة، أو مبادئ عقلية بديهية، أو أحكام عقلية سابقة على التجربة، والعقل كما يراه التجريبيون، يولد صفحة بيضاء، والمعرفة تتكون مما تأتي به الحواس عن طريق التجربة المباشرة، التي تخط على هذه الصفحة البيضاء.

والنزعة الحسية قديمة، نجدها في الفلسفة اليونانية عند الذريين والأبيقوريين، وكانت أكثر وضوحاً لدى السوفسطائيين، وكذلك عند أرسطو الذي أكد على أهمية الإحساس لحصول المعرفة وإن كان انتهى إلى ان المعرفة أو العلم الحقيقي هو العلم بالكليات* أي لابد للمعرفة من فعل العقل أما في العصر

---

* الكليات: الأفكار التي يدركها العقل في الأشياء، ويحصل عليها باستخلاصها من المحسوسات. فمن خلال رؤيتي لآلاف البشر يتكون في ذهني تصور عن الإنسان أو مفهوم «الإنسان».

الحديث فهناك العديد من ممثلي هذا المذهب من أشهرهم توماس هوبز، وجون لوك، وديفيد هيوم، وجون ستيوارت ميل، وكلهم من الفلاسفة الإنجليز، والفيلسوف الفرنسي كوندياك، وغيرهم.

هذا وسوف نلقي الضوء على موقف المذهب التجريبي فيما يتعلق بمصادر المعرفة، من خلال اثنين من أبرز ممثليه وهما: جون لوك وديفيد هيوم.

بماذا تفسر: طغيان الاتجاه التجريبي على الفكر في القرن العشرين

جون لوك: J. Lock (١٦٣٢ - ١٧٠٤ م)

أول من جعل مشكلة المعرفة الإنسانية موضوعاً لبحث مستقل منظم هو الفيلسوف الإنجليزي جون لوك، الذي اتبع منهج التحليل الدقيق، محاولاً أن يحدد طبيعتها وأصلها، ودرجة اليقين فيها.

مذهبه التجريبي:

يبني «لوك» مذهبه في المعرفة على مبدأين أساسيين هما:

(أ) رفض وجود أفكار فطرية، أو أحكام عقلية سابقة على التجربة.

(ب) الحواس والتجربة الحسية هما مصدر كل معرفة.

ليس في العقل شيء لم يكن من قبل في الحس

تحليل التجربة عند «لوك»:

يرى «لوك» أن هناك نوعين من التجربة يمدان العقل بالمعرفة وعن طريقهما يكتسب الأفكار، وهما:

أ - **التجربة الخارجية:** (الحواس الخمس): وهي المعرفة التي يحصلها الإنسان عن طريق استخدامه للحواس الخمس بتأثير الأشياء الخارجية.

ب - **التجربة الداخلية:** وهي المعرفة التي يكتسبها الإنسان عن طريق إحساسه الداخلي: كالإحساس بالجهد والحرارة والحركة .... وما اكتسبته النفس بوساطة الحواس.

وعلى ذلك فالتجربة الحسية لا تشمل الحواس الخارجية فقط، بل تشمل الحواس الداخلية أيضاً، بالإضافة إلى التأملات والأفكار التي تتولد عن هذه التجربة.

ويتيح «لوك» بذلك دوراً للعقل جنباً إلى جنب مع التجربة الحسية في حصول المعرفة، لكنه يعطي السبق للتجربة كمصدر للمعرفة.

تحليل الأفكار الناتجة عن التجربة:

ميز «لوك» بين نوعين من الأفكار:

أ - الأفكار البسيطة:

ومصدرها الإحساس والتفكير وهي على أربعة أنواع (١) أفكار صادرة عن حس واحد (الألوان والأصوات)، (٢) أفكار ناتجة عن عدة حواس (الامتداد، الحركة)، (٣) أفكار صادرة عن التأمل (التذكر، التخيل)، (٤) أفكار صادرة عن الإحساس والتأمل معاً (الوجود، القوة). ومهمة العقل هي الربط أو الفصل بين الأفكار البسيطة.

ب - الأفكار المركبة:

ويركبها العقل من الأفكار البسيطة، وهي إما أفكار مركبة عن صفات عرضية للأشياء بوساطة (الجمع)، أو عن العلاقات بين الأشياء (المقارنة) أو عن الصفات الجوهرية للأشياء (التجريد)، هذه الأفكار المركبة والتي هي من صنع العقل مصدرها الأفكار البسيطة، ولا يمكن للعقل أن يكونها قبل أن تصله عن الشيء الخارجي.

وهو هنا يؤكد على أن الإحساس والإدراك هما اللذان يمدان الذهن بالأفكار، ومعنى هذا أننا لو عجزنا عن الإحساس والإدراك لاستحالت المعرفة.

٢ - ديفيد هيوم D. Hume (١٧١١ - ١٧٧٦م)

ينكر الفيلسوف الإنجليزي «هيوم» وبصورة حاسمة، كل معرفة أولية «سابقة» على التجربة الحسية.

تحليل المعرفة عنده:

كل معارفنا تتألف من الإدراكات الحسية التي تأتي من التجربة.

ويقسم «هيوم» هذه الإدراكات من حيث درجة وضوحها إلى قسمين:

أ - الانطباعات الحسية:

وهي الصور الحسية التي تنقلها الحواس من موضوع ماثل أمامي، لذلك فهي قوية ناصعة، كصورة الشجرة الموجودة أمامي الآن.

ب - الأفكار:

تصبح الانطباعات الحسية أفكاراً بعد زوال المؤثر الحسي الذي أنتجها عندما تسترجع مع صورة الشجرة بعد ذلك، ولهذا فهي أقل وضوحاً، وأضعف تأثيراً من الانطباعات، وهي إما بسيطة (صورة لانطباع معين) أو مركبة من عدة انطباعات.

ويقول: كل فكرة في الذهن كانت في أصلها أثراً حسياً مصدره التجربة المباشرة، ومن ثم فإن جميع معارفنا يمكن أن ترد بكاملها إلى ادراكات حسية مختلفة، ويستحيل أن نجد بين أفكارنا - مهما بلغت من التركيب - فكرة واحدة لا يمكن تعقبها إلى الانطباع أو الانطباعات الحسية التي أتت بها إدراكاتنا المختلفة، والدليل على ذلك أننا نجد في حياتنا أن من يفقدْ حاسة ما يفقدْ بالتالي الأفكار المترتبة عليها، فالأصم لا يعرف شيئاً عن عالم الأصوات ... إلخ.

كيف ترابط الأفكار عند هيوم؟

ارتباط الأفكار وتكوين المعاني:

يرى «هيوم» أن الأفكار ترتبط بعضها ببعض وفقاً لقوانين تداعي المعاني، وهي:

(أ) **التشابه:** الفكرة تستدعي فكرة أخرى إذا كان بينهما تشابه فإننا نلاحظ (التمثال يستحضر في الذهن صورة من يمثله).

(ب) **التجاور المكاني:** الميناء يبعث على التفكير في البواخر لما بينهما من تجاور مكاني.

(ج) **التجاور الزماني:** الفكرة تستدعي فكرة أخرى إذا وقعتا في زمن واحد (الغزو العراقي للكويت، والثاني من أغسطس).

(د) **العلّية:** ذكر الميكروب يدفعنا للتفكير في المرض نظراً لرابطة العلّية، وبوساطة القوانين السابقة تتكون المعاني الكلية.

مثال: كلمة «إنسان» هي معنى كلي تكون نتيجة لارتباط عدة أفكار جزئية بعضها ببعض لوجود تشابه بينها.

قارن بين الأفكار المركبة عند «لوك» والمعاني الكلية عند «هيوم» من حيث دور العقل عند كل منهما.

معيار صدق الأفكار عند هيوم:

بموجب مذهبه فإن اختبار صدق الفكرة يكون بتحليلها وردها إلى مصدرها في التجربة، والفكرة التي لا تجد لها أصلاً في التجربة تعد فكرة باطلة.

وفقاً لمعيار الصدق هذا يحلل «هيوم» بعض الأفكار الهامة في الفلسفة كفكرة السببية (العلّية) كالتالي:

تحليل فكرة السببية:

«السببية» هي الاعتقاد بأن لكل ظاهرة علّة، أو سبباً، لوجود علاقة أو ارتباط بين شيئين بحيث إذاحدثت العلّة حدث المعلول، ويرى هيوم أن مبدأ العلّية أو السببية لا يتضمن أي نوع من الضرورة أو

الحتمية، إذ هو ليس سوى عادة ذهنية ترسخت عن طريق التكرار، وليس في وسع التجربة أن تبرهن على وجوب التشابه بين المستقبل والماضي. فاعتيادنا أن نرى شيئين متعاقبين يجعلهما يرتبطان بعضهما ببعض في أذهاننا عن طريق تداعي المعاني. وبالتالي نعتقد من مجرد هذا التعاقب أن ثمة علاقة ضرورية بينهما نسميها «السببية» بحيث إذا حدث السابق (العلّة) توقعنا حدوث اللاحق (المعلول)، وكأننا نعتقد أن السابق يخلق اللاحق بالضرورة في حين لا تثبت التجربة مثل هذه الضرورة. فوضع القدر على النار يجعلنا نتوقع غليان الماء لأننا اعتدنا ذلك، لكن ليس في حكم العقل ما يوجب ذلك ومن ثم ففكرة الضرورة السببية باطلة.

ثانياً: مصدر المعرفة عند العقليين (المذهب العقلي)

يرى أنصار المذهب العقلي أن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقة التي تتسم بطابع الضرورة والشمول، وعن طريق الاستدلال العقلي الخالص يمكننا أن نصل إلى معرفة العالم.

وأما الضرورة التي تتميز بها المعرفة العقلية، فتعني أنه لا يمكن الشك فيها، فلا يمكن تصور إلا أن (١+١=٢) بالضرورة، ولذلك فقوانين المنطق والرياضيات لا يختلف عليها اثنان، فالحقيقة يجب أن تكون واحدة بالنسبة إلى جميع العقول ولا تتوقف على مزاج أو رأي أحد.

وأما اتصاف الأحكام العقلية «بالشمول» فإن ذلك يعني صدق هذه الأحكام في كل زمان ومكان وعدم تغيرها بتغير الظروف والأحوال، أي أن ما هو صادق بالأمس هو صادق اليوم وسيكون صادقاً غداً، لذلك يرى أصحاب المذهب العقلي أن اليقين الذي نلمسه في العلوم الصورية، كالرياضيات والمنطق، هو المثل الأعلى لليقين، لأن الصدق في هذه العلوم ضروري وشامل.

من خصائص المعرفة العقلية الضرورة والكلية، فما هي خصائص المعرفة الحسية (التجريبية)؟

ويتفق العقليون على أن العقل قوة فطرية واحدة توجد عند جميع الناس، وهي كما يقول ديكارت «أعدل الأشياء قسمة بين الناس».

فيما أن المعرفة العقلية تتسم بالضرورة، فهي لا تقبل التعديل ولا الاحتمال، ولا تتوقف على الأفراد والظروف، ومن هنا كانت فطرية فينا جميعاً.

- العقل بقوانينه ومبادئه الأولية السابقة والمستقلة عن التجربة هو مصدر كل معرفة. ويعتبر أفلاطون «Plato» أشهر ممثلي المذهب العقلي في العصر اليوناني، كما يمثل هذا المذهب في العصر الحديث العديد من الفلاسفة من بينهم «ديكارت» و«سبينوزا» و«ليبنتز» وغيرهم.

والمذهب العقلي مثله مثل المذهب التجريبي، يضم فرقاً أو شيعاً شتى تتفق في الأصول (التي أشرنا إليها) وتختلف في الفروع.

وسنعرض هنا لاثنين من أبرز ممثلي هذا المذهب وهما أفلاطون، وديكارت.

١ – أفلاطون Plato (٤٢٨ –٣٤٧ ق. م)

يعد أفلاطون الممثل الحقيقي للمذهب العقلي في العصر اليوناني، فقد دلل في محاورتيه «مينون» و«فيدون» على الطابع الأزلي المستقل والسابق على التجربة، الذي تتميز به المعرفة العقلية.

لكي نتعرف على الطابع الأزلي للمعرفة عند أفلاطون، ينبغي أن نشير أولاً إلى نظريته في الوجود والتي تشكل أساس البناء الفلسفي عنده، بما في ذلك نظريته في المعرفة.

يقسم أفلاطون الوجود إلى قسمين غير متساويين:

القسم الأول هو العالم المحسوس: وهو ينقسم بدوره إلى قسمين آخرين هما:

الظلال، والخيالات... إلخ، ثم الأشياء الحسية الجزئية نفسها.

القسم الثاني هو العالم المعقول: وينقسم هو الآخر إلى قسمين هما: الموجودات الرياضية، والمثل. وهذا العالم يمثل الوجود الحقيقي، فما العلاقة بين العالم المحسوس والعالم المعقول؟

يرى أفلاطون أن عالم المثل هو الأصل، والأشياء الموجودة في العالم المحسوس عبارة عن ظلال أو صور أو انعكاسات لهذه المثل العقلية، ولهذا فهو مجرد ظاهر غير حقيقي، لأن الحقيقة ثابتة لا تتغير، بينما العالم المحسوس هو عالم التغير.

مثال: هذه الشجرة وتلك الشجرة وغيرها من ملايين الأشجار التي توجد في عالمنا لها «مثال» هو الطبيعة العقلية العامة التي تشترك فيها جميع الأشجار الجزئية، أي «مثال الشجرة» التي تمثل مبدأها الثابت، وعلى ذلك فالفرق بعيد بين المحسوسات وماهياتها (أي مثلها)، فالمثل كاملة وأزلية وعقلية من كل وجه، أما المحسوسات فهي ناقصة تتفاوت في تحقيق ماهيتها، ولا تبلغ أبداً إلى كمالها، فالعالم المعقول إذاً هو المثال وهو الطبيعة العقلية لعالم الحس وأصله.

- كل إدراك كلي له حقيقة خارجية هو صورة لها، هذه الحقائق الخارجية هي ما يسميها أفلاطون «المثل».

قارن في جدول بين العالم المحسوس والعالم المعقول من حيث خصائص كل منهما.

كيف عرفنا هذه المثل؟ (وبتعبير آخر): كيف ندرك عالم المثل عند أفلاطون الذي هو عالم الحقيقة؟

سنتعرف على إجابة هذا السؤال من خلال الحوار التالي مع أفلاطون:

(....): كيف يستطيع الإنسان أن يعرف عالم المثل ... المستقل عنا؟

أفلاطون : هناك طريقتان لمعرفة عالم المثل هما: التذكر – الجدل.

وسوف أحدثكم عن كل منهما بالتفصيل:

أولاً: التذكر:

(.....) تذكر ماذا...؟

أفلاطون: تذكر عالم المثل.

(.....) كيف تتذكره ونحن لم نره...؟

أفلاطون: كانت النفس الإنسانية تعيش في البداية وسط عالم المثل ثم ارتكبت خطأ فحكم عليها بالخروج من هذا العالم والهبوط إلى العالم المادي حيث تليست الجسد فنسيت كل ما كانت تعرفه من حقائق. ويأتي التعليم ليزيل ما علق على النفس من غبار ويجعلها تتذكر هذه الحقائق من جديد. فالمثل – كما سبق أن ذكرنا – ليست متحققة في التجربة (بما هي مثل) ولا مكتسبة بالحواس، بل لا بد من قوة روحية تعقلها. أو بالأحرى تجعلنا نتذكرها بعد أن عقلتاها في عالم يماثلها.

(.....) هل تعني بذلك أن عمل العقل عند إدراك المعطيات الحسية أو العقلية يتلخص في تذكر معرفة سابقة على التجربة؟

أفلاطون: نعم. فالمعرفة أولية غير مكتسبة بالتجربة. وإن في النفس أفكاراً فطرية مولودة معها.

ثانياً: الجدل:

وهو الوسيلة الأساسية أو (المنهج) لمعرفة عالم المثل، ويقسم إلى نوعين هما:

المرحلة الأولى: الجدل الصاعد: ويسير من الإحساس إلى الظن إلى العلم إلى العقل الخالص، فالإحساس الحاضر ينبه في الذهن ما اقترن به في الماضي، وما يشابهه أو يضاده، فتبدأ عملية التذكر بالأسئلة المرتبة يلقيها علينا ذو علم، وهنا ترتقي النفس إلى مرحلة الاستدلال وهي مرحلة وسط بين

المحسوس والمعقول، وهي معرفة ناتجة عن الفهم كالمعرفة الرياضية فرغم أنها معرفة يقينية إلا أنها معرفة وسط بين الظن والعلم الحقيقي.

مثال: علم الحساب، فالعالم يهتم بالأعداد نفسها بصرف النظر عن المعدودات (الجانب الحسي) ولكنه لا يقيم الدليل على وجود الموضوعات الرياضية (أعداد أو رموز.... إلخ).

والفيلسوف وحده يحقق ذلك بالتعقل الخالص وصولاً إلى عالم المثل الذي يشمل الأفكار العقلية الخالصة لجميع الموجودات.

المرحلة الثانية: الجدل الهابط: يتبين لنا بواسطة الجدل أن هناك مشاركة بين المثل وأنها مرتّبة في أنواع وأجناس، أي بعضها مرتبط بالبعض الآخر بواسطة مثل أعلى وأعم، وصولاً إلى أرفعها جميعاً، وهو مثال «الخير». فهي مرتبة من الأعم (مثال الخير) إلى الأخص (مثل المحسوسات)، هذا إذا كنا ننزل من عالم المثل إلى المحسوس، أما العكس أي من العالم المحسوس إلى المعقول، فتكون مرتبة من الأخص إلى الأعم.

ويضع الجدل هذه العلاقات في أحكام، مثال: هذا «المثال» يشارك الآخر في صفة البياض، ويشابه ثالثاً في الحجم ... إلخ وهو بذاته (أي مع بقائه) هو هو.

ووظيفة الجدل الهابط هو الكشف عن هذه العلاقات بين المثل حيث يهبط من أرفع المثل (الخير) إلى أدناها وفقاً لقواعد منطقية، إذ يقسم الجنس إلى أنواع، والأنواع إلى أفراد، وهكذا لاستيعاب الأقسام جميعاً، والجدل الهابط منهج مكمل للجدل الصاعد.

٢ - رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م):

فيلسوف فرنسي من أعظم فلاسفة العصر الحديث، أطلق عليه المؤرخون لقب «أبو الفلسفة الحديثة» كرس نفسه للبحث العلمي والفلسفي، وكان عالماً رياضياً وترتبط فلسفته بنظريته في الرياضيات، وهو من أهم مؤسسي المذهب العقلي.

وسائل المنهج العقلي عند ديكارت:

للمنهج العقلي عند ديكارت وسيلتان أساسيتان يستطيع العقل الوصول بهما إلى اليقين وهما:

أ - **الحدس:** أي المعرفة العقلية المباشرة التي يدرك بها العقل الحقائق البسيطة الواضحة بذاتها.

نص رقم «١» المعرفة الحدسية

«..... لا ينبغي على المعرفة التي يمكن أن نقيم عليها حكماً يقينياً أن تكون واضحة فقط بل يجب أيضاً أن تكون متميزة، والفكرة الواضحة هي تلك التي تكون حاضرة في ذهن يقظ، منتبه، وواضحة فيه....

والفكرة المتميزة هي تلك التي تكون جد دقيقة وجد مختلفة عن الأفكار الأخرى والتي تظهر واضحة تماماً لمن يتفحصها كما يجب...»

- استخلص من النص خصائص المعرفة الحدسية.

«مبادئ الفلسفة»

ديكارت - ترجمة د/ عثمان أمين

ب - **الاستنباط:** هو استخلاص نتائج جديدة من مقدمات نعرفها معرفة يقينية والتي تتمثل في مقدمات حدسية، أي أن دور الاستنباط يجيء بعد الحدس وبه تدرك الطبائع المركبة.

مثال: حين نقول أ = ب، ب = جـ إذن (أ= جـ) فهذه طريقة استدلالية استنباطية مبنية على البديهية التي تقول «الشيئان المساويان لشيء ثالث متساويان»، وبهاتين العمليتين العقليتين نتوصل إلى المعرفة اليقينية.

تقسيم الأفكار عند ديكارت:

يقسم «ديكارت» الأفكار من حيث مصدرها إلى أنواع ثلاثة مختلفة:

(أ) الأفكار الفطرية: وهي الأفكار التي توجد فينا كامنة بالفطرة، وهذه الأفكار تتصف بالوضوح والتميز (كفكرة الذات، وفكرة الله، وفكرة الامتداد، والجوهر... إلخ).

لذلك فصدقها يقيني، ويقول ديكارت إن هذه الأفكار ليست مطبوعة في الذهن، ومرتسمة فيه كأبيات من الشعر، ولكنها موجودة فيه بالقوة فلا تظهر إلا بإعمال الفكر.

(ب) أفكار ثانوية: وهي الأفكار التي تأتينا من الأشياء الخارجية عن طريق الحواس وهذه أفكار عارضة قد توجد في بعض الأشياء دون بعضها الآخر: كاللون، والطعم... إلخ.

(جـ) أفكار مركبة (مصنوعة): وهي الأفكار التي ننتجها بخيالنا وبإرادتنا من الأفكار المستمدة من الحس، كفكرة جبل من الذهب - وما شابه ذلك.

تعليق عام:

نلاحظ أن التجريبيين بوجه عام رفضوا الأفكار الفطرية، وأرجعوا المعرفة في أساسها إلى الحس والانطباعات الحسية، ورغم ذلك لم يستطيعوا إلغاء دور العقل حيث اعترف «لوك» ببعض المعاني والأفكار الكلية.

وكذلك الفلاسفة العقليون الذين أرجعوا المعرفة إلى العقل والأفكار الفطرية ولكنهم لم يلغوا دور الحواس في تنبيه قوى.

فالمسألة إذن ليست إلغاء تاماً للحس عند العقليين أو للعقل عند الحسيين بل يتعلق الأمر بأفضلية كل منهما على الآخر في نظر كل فريق.

فالحسيون يعترفون بوجود المعرفة العقلية ولكنهم يفسرونها باعتبارها صدى لإدراكنا الحسي، ويعترف العقليون بوجود المعرفة الحسية ولكنهم يفسرونها باعتبارها بحاجة إلى رقابة العقل (ديكارت) وتنبيه العقل (أفلاطون).

ثالثا: مصدر المعرفة عند الحدسيين (المذهب الحدسي)

«الحدس» في الفلسفة، هو الإدراك المباشر لحقيقة أو فكرة ما حاضرة أمام الذهن، دون استدلال أو قياس تمهيدي. والمعرفة الحدسية لا تحتاج إلى معيار خاص لقيمة الصدق، فطبيعتها واضحة ليست في حاجة إلى برهان.

وقد عرف تاريخ الفلسفة أشكالاً مختلفة من الحدس، فهناك الحدس الصوفي الذي اعتبره الغزالي مصدر المعرفة اليقينية، وهناك الحدس الرياضي الذي اعتبره ديكارت معياراً للصدق واليقين، كذلك احتلت المعرفة الحدسية موقعاً مهماً في فلسفة «سبينوزا».

الحدس كمصدر للمعرفة عند برجسون:

هنري برجسون H.Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١م)

هاجم الفيلسوف الفرنسي «برجسون» كلا من المعرفة الحسية (التجريبية) والمعرفة العقلية، ونادى بمعرفة من نوع مختلف هي المعرفة الحدسية، التي تعتمد على «الوجدان» أو الحس الباطني. والحدس كما يتصوره «برجسون» هو نوع من الإدراك المباشر لمجريات شعورنا الداخلي، وهو ملكة خاصة يستطيع الإنسان من خلالها فهم الحياة والتغلغل في أعماقها الداخلية، لذلك فهو يميز بين الفلسفة والعلم، وبين العقل والوجدان، فالعقل لديه هو أداة العلم، أما الوجدان فهو أداة الفيلسوف.

ويرى برجسون أن العقل عاجز تماماً عن تزويدنا بالمعرفة اليقينية الشاملة، أو المعرفة بجوهر الأشياء، لأنه إذا كانت لديه بعض القدرة في مجال الحس الخارجي أو مجال العلم، فإن هذه القدرة تتلاشى تماماً في مجال الحس الباطني أو ميدان الحياة، لأن العقل يعجز عن إخضاع مجال الحس الباطني لمقولاته، ومن ثم لا بد وأن تكون هناك ملكة أخرى بهذا المجال العاطفي - أو ما يسميه برجسون بالزمان الشعوري - هي ملكة الحدس فبواسطتها ندرك الأشياء من الداخل حيث تنفذ إلى باطن الشيء لتكون شيئاً واحداً مع ما فيه من أجزاء.

مستعيناً بأحد المراجع التالية: ١ - مدخل إلى الفلسفة أ.د. إمام عبدالفتاح إمام - الطبعة السادسة ٢ - المدخل إلى الميتافيزيقا، برجسون ترجمة د/ محمد أبوريان ٣ - برجسون: د/ زكريا إبراهيم - سلسلة نوابغ الفكر (أو أي مرجع مناسب).

- فرق بين دور العقل، ودور الحدس في مذهب «برجسون» وبين العلم والفلسفة، ناقش هذه التفرقة مع معلمك وزملائك بالصف.

والمعرفة الحدسية وحدها تصلح أن تكون مصدراً للمعرفة الحقة، التي تفوق كل المعارف الحسية والعقلية لأنها وحدها التي تدرك الجانب الروحي في موضوع المعرفة. وهناك فرق بين من يصف مدينة سمع عنها أو شاهدها في فيلم ومن يعيش في قلب هذه المدينة فهو يعيش الواقع الحي الشامل للأشياء ويتعاطف معها.

رابعاً: مصدر المعرفة عند البرجماتيين (المذهب البرجماتي)

ازدهر التيار البرجماتي في الولايات المتحدة بوجه خاص في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن العشرين.

معنى البرجماتية:

كلمة برجماتية pragmatism مشتقة من الكلمة اليونانية pragma ومعناها العمل أو الفعل. وأول من أدخلها إلى الفلسفة هو الفيلسوف الأمريكي «تشارلز بيرس» (١٨٣٩ - ١٩١٤) في مقالة له بعنوان: «كيف نوضح أفكارنا» وقد أطلق على الفلسفة البرجماتية عدة أسماء مثل فلسفة الذرائع أو الوظيفية أو الأداتية.

ويقول «بيرس»: إن معرفة أي شيء تعني معرفة آثاره العملية في الحياة.

مثال: معرفتنا للكهرباء تتمثل في تتبع منافعها العملية في حياتنا (من إضاءة، تشغيل أجهزة) رغم أنها في ذاتها قوة غامضة لانعرف حقيقتها.

ومن أشهر فلاسفتهم:

وليم جيمس W.James (١٨٤٢ - ١٩١٠م)

وهو أشهر الفلاسفة البرجماتيين، حيث ذاع المذهب البرجماتي على يديه، واكتمل في صورته الواضحة وخاصة فيما يتعلق بالحقيقة في كتابه المشهور «البرجماتية» Pragmatism عام ١٩٠٧.

جون ديوي(١٨٥٩- ١٩٥٢م)

وهو مؤسس الصورة الجديدة للبرجماتية، المسماة الذرائعية، وتعرف الصورة الجديدة للذرائعية عنده بالأداتية أو «المذهب الطبيعي للإنسان» ويؤكد ديوي على دور التربية في تحسين أوضاع المجتمع.

المبادئ الأساسية لنظرة المعرفة عند البرجماتيين:

١ - تتفق البرجماتية مع الاتجاه التجريبي في عدة نقاط أهمها:

أ - ارتباطها بالواقع الخارجي.

ب - استقلال الموجودات عن العقل.

٢ - اختلفت البرجماتية عن الاتجاه التجريبي في أنها طورت النظرة إلى المعرفة بأن جعلتها نظرة إلى المستقبل لا إلى الماضي، فبدلاً من أن تهتم بتحليل التجربة والمعرفة وردها إلى أصولها الأولى، كما فعل «لوك» و «هيوم»، وجهت اهتمامها إلى ربط المعرفة بعالم التجربة من حيث النتائج لا من حيث النشأة، لذلك لا تسأل البرجماتية «كيف تنشأ المعرفة أو الأفكار» وإنما تهتم بأكثر بالسؤال عن النتائج العملية المترتبة على هذه الفكرة أو تلك في عالم الواقع.

٣ - المعرفة لا تقوم على معانٍ عقلية ثابتة أو تصورات قبلية أو فطرية، ولذلك تنكر البرجماتية وجود حقيقة مطلقة الصدق، فالإنسان هو الذي يصنع الحقيقة، وهي تتغير بتغير الإنسان وتغير الزمان والمكان ومرحلة التقدم العلمي، وقد تصبح حقائق اليوم خطأ في المستقبل من خلال تقدم مراحل البحث العلمي، لذلك يقول البرجماتيون إن الحقيقة عملية جارية التكوين وفي تغير مستمر والحقيقة تقررها التجربة ولا توجد حقائق مستقلة عنها.

٤ - القيمة الحقيقية للفكرة البرجماتية تتمثل في نتائجها العملية بمعنى أن الحق أو الصدق لا يكون في عبارة ما قبل اختبارها في الواقع وظهور أثرها النافع، فنقول عن فكرة ما إنها حق لأنها نافعة.

والمقصود هنا المنفعة العامة لأفراد المجتمع لا المنفعة الشخصية أو الفردية.

الفصل الثاني

إمكان المعرفة

هل معنى أن الإنسان يمتلك أدوات تعينه على المعرفة (الحواس، العقل، إلخ)، أن باستطاعته أن يصل إلى جميع الحقائق.. وأن يطمئن إلى يقين تلك المعرفة..؟

من المشكلات الأساسية في موضوع إمكان المعرفة مشكلة «الشك واليقين» التي تعد إحدى المشكلات الفلسفية قديماً وحديثاً.

وتدور هذه المشكلة حول قدرة الإنسان على معرفة العالم من حوله، ودرجة اليقين المتحققة في هذه المعرفة . وقد ظهرت في هذا المجال مجموعة من المذاهب يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: مذهب الشك

ويمكن حصره في نوعين: (أ) الشك المطلق، (ب) الشك المنهجي.

ثانياً: الدوجماطيقية. (القطعية)

أولاً: مذهب الشك

تعريف الشك وخصائصه:

يحمل الشك دلالات شتى. وذلك لأنه يطلق على مجالات مختلفة. وعلينا أن نلاحظ أن معنى الشك في حياتنا اليومية أوسع بكثير من الشك بمعناه الفلسفي.

ما معنى الشك كما نستخدمه في حياتنا اليومية، والشك بالمعنى الفلسفي؟

الشك كما نستخدمه في حياتنا اليومية، يرتبط بأمور الحياة العامة كالتشكك في مصداقية أو أمانة الآخرين، أو التشكك في معتقدات جماعية - ويسمى الشخص في هذه الحالة (متشككاً) - لكنه لا يمكن أن يكون شاكاً بالمعنى (الأبستمولوجي) للكلمة.

الشك الفلسفي:

يعني لفظ الشك في اليونانية البحث والتقصي من أجل الكشف عن الحقيقة، كما يطلق على من ينظر بإمعان، أو يفحص باهتمام قبل أن يصدر حكماً على شيء أو قبل أن يتخذ أي قرار، ولكن هذا اللفظ اتخذ مدلولاً اصطلاحياً بعد ذلك ليشير إلى التوقف عن إصدار الحكم لسبب ما (كعدم الثقة في وسائل المعرفة..). على أن أوسع معنى يمكن أن يفهم به الشك الفلسفي هو: أن تضع لأسباب معينة ما يتفق الناس على التسليم به موضع الشك، وتثير التساؤلات حوله، أي أن الشك: تصورٌ يضع موضوع

التساؤل ما يعتبره الآخرون معرفة قاطعة وصحيحة. كما يجب أن نميز بين الشك وبين الإنكار - أو عدم الاعتقاد - إذ شتان بين من يصدر حكماً سلبياً (الإنكار) ومن يتوقف عن إصدار الحكم سلبياً كان أو إيجابياً، أو يثير تساؤلات معرفية.

وهناك نوعان بصفة عامة من الشك الفلسفي، هما:

(أ) الشك المطلق:

ويعني تعليق الحكم والتوقف عن إصداره، وأصحاب هذا النوع من الشك ينكرون إمكان المعرفة لأنه لا يوجد شيء يمكن معرفته، فإذا ما وجد استحال نقله أو توصيله للآخرين.

ومن ثم فصاحبه يبدأ شاكاً وينتهي شاكاً، فهو غاية وليس وسيلة.

من التعريف السابق - استخلص الخصائص العامة لهذا النوع من الشك.

هذا وقد ظهرت بوادر نزعة الشك في الفلسفة اليونانية القديمة عند المدرسة الإيلية ثم جاءت السوفسطائية فزعزعت الإيمان بالمعرفة اليقينية. وقد بلغت النزعة الشكية ذروتها في تعاليم «بيرون» الذي يعد مؤسس الشك في العصر القديم. وقد قام تلاميذه من بعده بتدوين مؤلفاته ودعمها وأعطوا لأفكاره وآرائه صيغة المذهب.

- مما هو جدير بالذكر أنَّ ظهور هذا النوع من الشك قد ارتبط بتفكك المجتمعات وتدهورها حضارياً وفكرياً وخلقياً، أي أنه أحد مظاهر هذا الانهيار.

استعن بمرجع في تاريخ الفلسفة اليونانية واكتب تقريراً مختصراً عن ظهور الشك المذهبي في المجتمع اليوناني - ناقش هذا التقرير مع معلمك وزملائك بالفصل.

ب - الشك المنهجي:

وهو نوع من الشك المؤقت يتخذه الفيلسوف منهجاً له في التفكير يختاره بإرادته ليتخلص به عقله من الأفكار التي اكتسبها دون دراسة أو تمحيص أو إعادة تقييمها كخطوة أولى للوصول إلى اليقين، أي أنه وسيلة وليس غاية.

- من التعريف السابق استخلص أهم خصائص هذا النوع من الشك.
- قارن بين الشك المذهبي (المطلق) والشك المنهجي من حيث أهداف وخصائص كل منهما.

فيمايلي سوف ندرس بعض النماذج لهذين النوعين من الشك كالتالي:

أ - الشك المطلق عند كل من السوفسطائيين، ومذهب التوقف عن الحكم عند بيرون وأتباعه، وأتباع الأكاديمية الجديدة - مع مناقشة ودحض حجج هؤلاء الشكاكين.

ب - الشك المنهجي في الحضارة الإسلامية عند الإمام أبو حامد الغزالي، وفي الحضارة الغربية عند ديكارت، مع إبراز أهمية هذا النوع من الشك.

أ - نماذج من الشك المطلق

١ - السوفسطائيون Sophists

من هم؟

هم جماعة من المفكرين اليونانيين ظهروا في وقت انقلبت فيه الأوضاع السياسية في اليونان رأساً على عقب، ومن ثم تعين أن يختلف النظر في ظل هذه الأوضاع الجديدة إلى الفضائل المطلوبة من المواطن، وقد جاء ظهور جماعة السوفسطائيين في تلك الفترة نوعاً من الاستجابة لهذه الحاجة الملحة لفضائل وسلوكيات تطابق الأوضاع المتغيرة، فالسوفسطائيون فلاسفة سياسة، وهم معلمو خطابة وحكمة، ويعدّون مؤسسي علم البيان والخطابة، وهو ما يتناسب ومتطلبات السياسة، ولم يكوّن السوفسطائيون مدرسة فلسفية أو مذهباً، لكنهم يشتركون في بعض الآراء العامة، ووجهوا الانتباه إلى مشكلات المعرفة، ونادوا بنسبيتها لاستحالة البرهنة عليها، فالإنسان مقياس الأشياء جميعاً، كما ادعوا نسبية الأحكام الأخلاقية ونسبية القوانين والعدالة في المجتمع.

كيف شكك السوفسطائيون في إمكان المعرفة؟

لجأ السوفسطائيون في المجادلات إلى مناهج عرفت فيما بعد باسم «السفسطة» وتعتمد على التلاعب بالألفاظ، وكان دفاعهم عن فكرة ما يشمل الدفاع عن الفكرة أو ضدها، ما دامت تتحقق من ورائها مصلحة ذاتية سياسية وبصرف النظر عن مصلحة الجماعة.

وبالطبع فإن هذا الاستخدام السيئ للجدل لا يساعد على الوصول إلى حقيقة ثابتة، لذلك تصدى لهم بالمرصاد الفيلسوف اليوناني المعروف سقراط، ثم أفلاطون وأرسطو بعده.

ومن أشهرهم بروتاجوراس، وجورجياس، وسوف نتحدث فيما يلي عن مؤسس هذه المدرسة: بروتاجوراس.

بروتاجوراس (كنموذج للفكر السوفسطائي)

هو من أشهر ممثلي هذه الحركة، ولكي نتعرف عليه سنلتقي معه في حوار قصير:

بروتاجوراس: نعم، أنا من أكبر ممثلي الحركة السوفسطائية، وقد تأثرت كثيراً بالفيلسوف اليوناني القديم «هرقليطس» أنا وبقية زملائي من السوفسطائيين.

(...): إذن فأنت مؤمن بالتغير يا « بروتاجوراس»؟

بروتاجوراس: نعم، فأنا مؤمن بعبارة هرقليطس « كل شيء في حالة تغير مستمر». الطبيعة متغيرة والحياة السياسية أيضا متغيرة، وإحساساتنا تتغير من لحظة إلى أخرى ومن إنسان لآخر.

(...): إذا كان التغير هو السمة العامة في الطبيعة والحياة، فكيف نتوصل إلى الحقائق.

بروتاجوراس: لا توجد حقائق مطلقة وثابتة، ولكن توجد حقائق نسبية تختلف باختلاف الأفراد، فالحواس وهي مصدر المعرفة الإنسانية، لا تقع على شيء ثابت، وليس هناك حقيقة موضوعية واحدة هي موضع اتفاق بين الناس، بل هناك حقائق متعددة بتعدد الأفراد، وتعدد الحالات المختلفة في الفرد الواحد.

(...): أذلك قلت عبارتك المشهورة: «الإنسان هو مقياس كل شيء، ما يوجد وما لا يوجد».

بروتاجوراس: نعم، فما يراه «إنسان أنه حق، هو حق بالنسبة له، وقد يكون باطلاً بالنسبة لغيره».

(...): ماذا تقصد «بالإنسان» هنا يا «بروتاجوراس»؟

بروتاجوراس: أقصد هنا «الإنسان الفرد» وليس الإنسان في معناه العام (الماهية العامة) فالإنسان الفرد هو معيار الحق والباطل، الخير والشر..إلخ.

أهم النتائج المترتبة على الشك السوفسطائي:

١ - هدموا بذلك أهم الأسس التي يقوم عليها العلم بإنكارهم إمكانية إصدار أحكام عامة أو وجود حقائق موضوعية تكون موضع اتفاق بين الناس.

٢ - هدموا بذلك الأسس التي تبنى عليها القيم والأخلاق عندما أقروا النسبية الذاتية فيما يتعلق بالحق والباطل والخير والشر، وقد انعكس ذلك سلباً على الحياة الاجتماعية نتيجة لزعزعة الثقة في العلم والقيم والمعرفة، كما يتعذر التواصل الثقافي والحضاري بين البشر نتيجة لإلغاء دور العقل وتعليق المعرفة على الحواس.

ب - نماذج من الشك المنهجي

١- في العالم الإسلامي

الإمام أبو حامد الغزالي* (٤٥٠ - ٥٠٥هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١م)

الإمام أبو حامد الغزالي «حجة الإسلام»

هو واحد من أكبر مفكري الإسلام وأكثرهم شهرة، أطلق عليه المؤرخون «حجة الإسلام» حيث أفاض في مختلف الشؤون الإسلامية، وقام بتحليل وتقييم جميع المعارف في عصره، وقد استطاع بفضل منهجه المستقل في التفكير والحكم أن يدافع عن الدين ضد المذهبية، وتورط الطائفية في الأخطاء من أجل رجحان مذهب، وتقليد بعض الفلاسفة اليونانيين خاصة في موضوع الإلهيات أو الميتافيزيقا، فكان طريقه في التفكير «الشك المنهجي» بحثاً عن نقطة ابتداء يقينية تبنى عليها المعرفة، كالتالي:

١ - لبدء بالشك فيما كان مطروحاً من مذاهب ومدارس مختلفة بعد الاطلاع على كافة مراجعها، حيث إن عصر الغزالي بصفة خاصة قد عُرف بكثرة المشكلات الطائفية وتنوع الفرق، وكثرة المدارس الفكرية والمذاهب التي يدعي كل منها أنه على حق.

٢ - كما شك في كل المعارف الحسية والعقلية، لأن الشك وحده هو الذي يجعل الوصول إلى الحقيقة أمراً ممكناً، ويقول الغزالي في ذلك:

« الشكوك هي الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال »

«ميزان العمل»
الغزالي

استخلص مما سبق أسباب ودواعي الشك عند الغزالي.

* ولد بمدينة طوس - خراسان من أكبر علماء الإسلام ورجال التصوف الإسلامي، وكان لشخصيته الفذة عميق الأثر وبالغ التقدير في المجتمع الإسلامي.

من الشك إلى اليقين:

استعرض الغزالي علوم عصره عساه أن يجد من بينها علماً قد يوصله إلى اليقين، فلم يجد علماً موصوفاً بهذه الصفة إلا في الحسيات (المادة المستخدمة للبحث في مجال الطبيعيات) والضروريات العقلية (العلوم الرياضية).

فماذا كان شأنه معها؟

١ - الشك في الحواس:

بدأ الغزالي أولاً باختبار الحواس مفترضاً أن اليقين قد يكون موجوداً في المعرفة الحسية، لكن بعد البحث شك الغزالي في شهادة الحواس، وذلك لأنها:

أولاً: عاجزة عن إدراك بعض الحقائق. (علل)؟

ثانياً: خادعة تصور لنا الأشياء على غير حقيقتها، فأنت تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، مع أنه أكبر من الأرض في المقدار.

وعليه فقد بطلت الثقة في المحسوسات.

٢ - الشك في أحكام العقل:

العقل يكذّب الحس تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته بعد أن كانت المعارف الحسية - قبل ذلك - معارف واضحة - فهل يصمد العقل أمام التجربة؟

وهل يكون العقل مصدراً أو أداة المعرفة اليقينية؟

صحيح أن الشك أوجد في مجال المعارف الحسية نقاط تشكيك كثيرة، لكن هذه النقاط لا توجه بالسهولة نفسها إلى العقل وخاصة: المعارف العقلية الأولية والبديهيات، ولكن فكما أمكن التشكيك في المعارف الحسية - والتي كانت تعتبر قبل ذلك معارف مباشرة وواضحة - من جانب العقل، أي من جانب درجة للمعرفة أعلى منها، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى العقل فكذّب الحس، في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته.

المجاهدة الصوفية للوصول إلى اليقين:

شعر الغزالي بعد هذه الخواطر أنه أسير سجن مظلم، وأخذ يبحث عن وسيلة للخروج منه، وقضى حياة تصوف وعزلة ورياضة ومجاهدة، وعزوف عن الجاه والمال والملذات، فعلم يقيناً بعد ذلك «أن الصوفية هم السالكون إلى طريق الله أي طريق الحق.

نص «١» العلم الصوفي وعودة الثقة واليقين:

«علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة، على وجه الأرض، نور يستضاء به .. فمن أول شروطها، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء في الله .. فيصبح مؤهلاً لتلقي النور الإلهي الذي يقذفه الله في القلب فمن ذلك النور يطلب الكشف ..».

كتاب «المنقذ من الضلال»

للإمام الغزالي

الأفكار الأساسية في النص قسمان:

أ - صفات المتصوفة. (استخرجها من النص).

ب - مرتبة الإلهام الصوفي وعلاقته بالنبوة (ما أهمية هذا التشبيه؟)

كيف توصل الغزالي إلى هذا العلم؟

بناءً على ما ورد في - المصدر السابق - «إن ذلك لم يكن بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف».

توصل الغزالي عن طريق المجاهدة الصوفية إلى معرفة الحق المطلق (الله) وهذه المعرفة لا تصل إليها عن طريق الحواس، ولا تصل إليها عن طريق العقل وإنما طريق هذه المعرفة هو الحدس أو العيان المباشر (اتصال الذات بالموضوع اتصالاً مباشراً دون واسطة) وقد عرض الغزالي هذه المعرفة الحدسية على أنها نور قذفه الله في صدره، فهل هذا النور يقذفه الله تعالى في قلب أي إنسان؟ لقد وصف الغزالي بالتفصيل الطريق والمنهج الذي يوصل إلى ذلك، وهي معرفة «ذوقية» لا يعرفها إلا صاحبها، ومعنى ذلك أن من يحصل عليها لا يستطيع أن ينقلها إلى الغير، وعلى الباحث عن اليقين أن يسلك الطريق بنفسه.

درجات اليقين في المعرفة عند الغزالي:

١ - المعرفة الحسية هي أدنى مرتبة، لما هو معروف عن أخطائها، وتغير موضوعاتها.

٢ - المعرفة العقلية أكثر يقيناً لأنها تستند إلى الاستدلال المنطقي.

٣ - المعرفة الحدسية تتصف باليقين المطلق، فهي نور من عند الله ومصدر كل معرفة وتمكننا من معرفة المصدر والذي منه ينبعث كل نور، لأنها مشهود مباشر للحق المطلق.

قارن تجربة الغزالي الصوفية بالممارسات المنتشرة في بعض الفرق الصوفية الحالية؟

٢ - الشك المنهجي في الفلسفة الغربية

ديكارت* (١٥٩٦- ١٦٥٠م).

يعد الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» أبرز الفلاسفة الغربيين الذين ترتبط أسماؤهم بالشك المنهجي. استهدف ديكارت بشكه المنهجي الوصول إلى اليقين، فالعقل حافل بأفكار بعضها خاطئ وعلى الإنسان من أجل بلوغ الحقيقة أن يتحرر أولاً من كل المعتقدات السابقة، وألا يقبل بعد ذلك موضوعاً ما على أنه حقيقة إلا إذا اتصف بالوضوح، والتميز، فمعيار الحقيقة إذن هو الوضوح والتميز.

أسباب الشك الديكارتي:

ديكارت - أشهر فيلسوف فرنسي حديث

في كتابه «تأملات في الفلسفة الأولى» يقول ديكارت: إنه يلزم أن نضع موضع الشك جميع الأشياء بقدر الإمكان. ويبرر ذلك بأنه منذ حداثة سنه قد تلقى قدراً كبيراً من الآراء الباطلة وحسبها صحيحة، فكل ما بناه منذ ذلك الحين من مبادئ على هذا القدر من قلة الوثوق لا يكون إلا مشكوكاً فيه، وإذن فيلزم إذا أردنا أن نقيم شيئاً متيناً في العلوم أن نبدأ بكل شيء من جديد وأن نوجه النظر إلى الأسس التي يقوم عليها البناء.

ونستطيع أن نضع موضع الشك:

١ - المعطيات الخاصة للحواس فالحواس تخدعنا والأفضل ألا نثق فيها.

٢ - الأشياء العامة كالعيون والرؤوس والأيدي التي يمكن أن تتألف منها الخيالات، على اعتبار أن هذه الأشياء العامة يمكن أن تكون نفسها خيالية محضة.

٣ - العناصر العامة كالامتداد والكم والعدد والمكان والزمان.

---

* أطلق عليه المؤرخون لقب «أبو الفلسفة الحديثة» استخدم الشك المؤقت ليتوصل منه إلى أول يقين عقلي أساسه الوجود، وهو «الكوجيتو» وتدرج منه إلى البرهان العقلي على وجود الله.

فالرياضيات هي أكثر العلوم يقيناً، ولكن الشك فيها ممكن أيضاً، إذ إن أناساً كثيرين قد أخطأوا في الهندسة والحساب، بل إنني عندما أقول ٢+٣ = ٥ فمن يدريني أنني لا أخطئ، فقد يكون الله قد أراد لي أن أخطئ في ذلك، فإذا كان الله منزهاً عن الخطأ، فقد يكون هناك شيطان خبيث قد أخذ على عاتقه أن يضللني، فأظهر لي الباطل صواباً.

من الشك إلى اليقين:

١ - إثبات وجود النفس (مبدأ الكوجيتو):

ينتهي ديكارت إلى أنه على الرغم مما ذهب إليه من شك، فهناك حقيقة لا يستطيع أن يشك فيها، وهي أنني - فيما يقول ديكارت - أشك، والشك نوع من أنواع التفكير، إذن أنا أفكر، ومادمت أفكر فهناك ذات فاعلة - (لكل فعل فاعل) ومن ثم أنا أفكر.. إذن فأنا موجود، وذلك هو المبدأ الديكارتي الشهير المعروف باسم مبدأ «الكوجيتو» حيث ذكر العبارة باللغة اللاتينية .. Cogito, Ergo Sum ومن هذه الحقيقة يبدأ ديكارت في إقامة بنائه الفلسفي.

٢ - من الكوجيتو إلى الله:

بعدأن أثبت ديكارت وجوده كذات مفكرة، كان من الطبيعي أن ينحول عن هذه النقطة إلى «مضمون» أفكاره، «فالأنا» التي أثبت وجودها هي شيء ما ماهيته التفكير والشك، لكن الشك نقص، إذ لو كنت كاملاً لامتنع الشك، وها هنا تظهر فكرة الموجود الكامل وهو الله «الكامل»، ويذهب ديكارت إلى أنني لا يمكن أن أكون مصدرها فهذه الفكرة تصور لي «جوهراً لا متناهياً»، فحقيقة هذا الجوهر تتجاوز إذن ماهيتي وحقيقتي، لأني كائن متناه، وفكرة «الكامل» لا يمكن أن تنتجها قدرة ناقصة فأنا نفسي كائن ناقص كما هو واضح من حالة شكي، فلا بد أن يكون هناك كائن كامل هو مصدر «الفكرة»، هذا الكائن الكامل هو الله.

فحقيقة هذا الجوهر تتجاوز إذن ماهيتي وحقيقتي.

إن فكرة الله على النحو الذي بيناه، لا يمكن أن يكون مصدرها كائناً آخر غير الله نفسه، ويؤدي بنا هذا التأمل إلى أن نستنتج ضرورة وجوده في الخارج (كحقيقة خارج ذهنه) وهو موجود لا متناه ومطلق الكمال، وهو الذي أودع في نفسي هذه الفكرة، الله موجود، وأن وجودي يتوقف عليه توقفاً تاماً.

نص رقم «١»

«الحق أنه لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقني غرس فيّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته، وليس من الضروري كذلك أن تكون هذه العلاقة شيئاً مختلفاً عن هذه الصفة نفسها،

ولكن مجرد اعتبار أن الله خلقني يرجح عندي الاعتقاد بأنه قد جعلني من بعض الوجوه على صورته أو على مثاله.

تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى

ترجمة الدكتور/ كمال الحاج

في النص فكرة معلنة، وأخرى ضمنية.
استخلص من النص هاتين الفكرتين.

ويمضي ديكارت قدماً في إثبات وجود الأجسام والعالم الخارجي بعد أن تم إثبات وجود الله، الضامن لصحة أفكاره والتي تتميز بالوضوح.

الفصل الثالث

طبيعة المعرفة

يدور هذا الموضوع حول بنية المعرفة: ذات / الموضوع - الذات العارفة، وموضوع المعرفة والعلاقة المتبادلة بينهما. فبدون أحد هذين الطرفين أو كليهما لا تكون هناك معرفة.

- هل الذات العارفة (أو الفكر) تشكل طرفاً مستقلاً متميزاً أو عالماً قائماً بذاته يقف أمام عالم الواقع ويختلف عنه..؟

- كيف تلتقي الذات بالموضوع أو الفكر بالواقع؟

هذا هو موضوع هذا الفصل.

نحن نقول عن وردة ما إنها جميلة، وقد نقول القول نفسه عن لوحة فنية، أو عن قطعة موسيقية، إلخ. فهل بين هذه كلها وجه شبه جعلنا نصفها كلها بصفة واحدة هي «الجمال»؟

لاشك أن في ذهنك فكرة عن الجمال تقيس بها الأشياء الخارجية فتعرف مقدار ما لها من جمال، وبهذه الفكرة الذهنية استطعت أن ترى وجه الشبه بين هذه الأشياء. إذن فالمعرفة تقتضي طرفين:

١ - فكرة في الذهن والفكرة معنى لا يُرى ولا يُحس.

٢ - شيء في الخارج أو الموضوع الذي يُعرف (يُرى ويُحس).

كيف تلتقي الفكرة بالواقع، وما هي طبيعة العلاقة بينهما؟

انقسم الفلاسفة في الإجابة عن هذا السؤال إلى اتجاهين رئيسين:

أولا - الاتجاه الواقعي: الذي يرى أن المعرفة هي صورة مطابقة لحقائق الأشياء في العالم الخارجي.

ثانيا - الاتجاه المثالي: الذي يرى أن المعرفة مرهونة بالقوى التي تدركها، بمعنى أن طبيعة المعرفة هي ذاتها طبيعة الوجود.

وفيما يلي نعرض بإيجاز طبيعة المعرفة عند المثاليين:

طبيعة المعرفة عند المثاليين:

الاتجاه المثالي: Idealism

وهذا المصطلح مشتق من كلمة Idea بمعنى فكر أو فكرة - وهو اتجاه فلسفي يتعارض بشكل قاطع مع المادية، فالمثالية تبدأ من المبدأ القائل إن الحقيقة النهائية ذات طبيعة عقلية أو ذهنية أو فكرية أو روحية، ومنهم من ينكر الوجود المستقل للأشياء خارج الذات المدركة وهم (أتباع المثالية الذاتية).

من ممثلي الاتجاه المثالي إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)

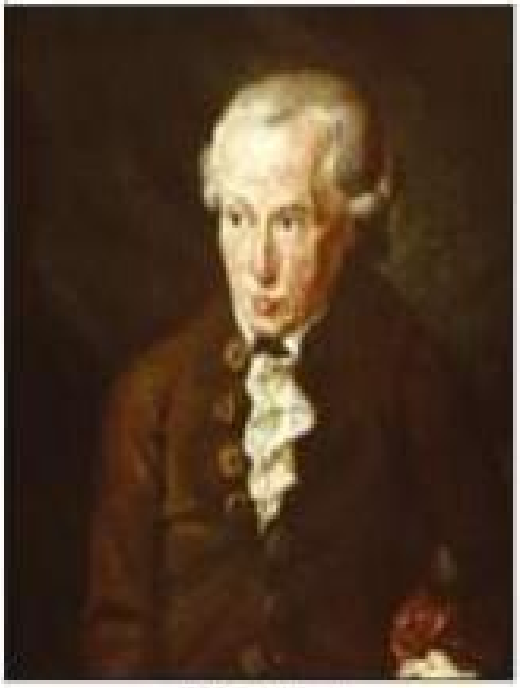

إيمانويل كانط

عرفت مثالية «كانط» باسم «المثالية النقدية» يميز «كانط» بين المفاهيم العقلية «السابقة على التجربة» والمعارف المكتسبة عن طريق التجربة، وتعتبر الأولى ضرورية لإدراك الأشياء ومعرفتها.

وترتبط صفة «المثالية» في هذا الاتجاه بقول كانط: إن هناك شروطاً أولية يضعها العقل دون اعتماد على التجربة (أي سابقة على التجربة) هي التي تجعل التجربة ممكنة.

أما كونها «نقدية» فلأنها ترى أن هناك حدوداً يتعين على العقل ألا يتخطاها في مجال المعرفة، فمجال العقل ينحصر في حدود الظواهر الموجودة في زمان معين ومكان محدد.

والمعرفة عند «كانط» تتألف من عنصرين: مادة تأتي بها الحواس وصورة مصدرها العقل، المادة لا توجد من غير الصورة، والصورة بذاتها لا معنى لها لأن وظيفتها الاتحاد بالمادة.

مم تتكون المعرفة؟ (عناصر المعرفة)

مادة المعرفة: الإحساسات المتفرقة التي تأتينا من الأشياء الخارجية، وهذه مصدرها التجربة أي نحصل عليها بعد التجربة، لذلك يسمى هذا الجانب من المعرفة (بعدي) أي بعد التجربة.

صورة المعرفة: هي مقولات يضعها العقل ليشكل بها التجربة (أو مادة المعرفة) أي أنها ليست فطرية وإنما هي سابقة على التجربة سبقاً منطقياً لا زمنياً.

شروط المعرفة:

أ - **الحساسية الصورية:** صورتا الزمان والمكان: وهما صورتان عقليتان أوليتان، أي أنهما سابقتان على التجربة، وهما شرطان أساسيان للإدراك الحسي، وبهما تنتظم المحسوسات في علاقات مكانية وتتابعات زمانية.

ب - **مقولات الفهم الصوري:** وعددها اثنا عشرة مقولة تطبق على الظواهر أو المدركات الحسية فتجعل منها قضايا علمية أي معارف كلية وضرورية فيتم فهمها، ومن هذه المقولات: مقولة «الكم»، و «الكيف» و «الجوهر» و«العلية».

كيف تتم المعرفة عنده؟

التجربة تنتظم وفقاً لتصورات الذهن:

يـرى « كانط» أن الأشـياء الخارجية تأتي إلينا على هيئة معطيات حسـية تمدنـا بها الحواس هذه المعطيـات المختلفة هي عبارة عن مادة مختلطة ومشوشـة لا رابط بينهـا، ولا تنظيم وهي لا تكفي لكي أدرك الشيء بل لا بد أن تنتظم وتتجمع، وهذه وظيفة صورتي الزمان والمكان اللتين تجمعان المعطيات الحسية وتنظمها فتجعلها حدساً حسياً أي موضوعات قابلة للفهم.

والزمـان والمكان معنيان كليان، قبليان، وهما صورتان يفرضهما الفكر على المعطيات المحسوسـة فيجعل عالم الظواهر قابلاً للإدراك.

تصب هذه الحدوس في القوالب العقلية الاثنى عشر، فتتم لنا معرفة العالم.

إذن - ما المعرفة الممكنة عند كانط..؟

هـي ما تنقله الحواس إلى العقل من معطيات تصب في قوالب الذهن أو المقولات مروراً بصورتي الزمان والمكان، ويقسـم كانط العالم إلى عالم الظاهر وعالم الشـيء في ذاته الأول متناه والثاني لا متناه. والحواس لا تنقل إلينا إلا عالم الظاهر وحده، أما عالم الشيء في ذاته فهو خارج حدود التجربة بمفهومها السابق، وبالتالي فهو غير قابل للمعرفة.

فالمعرفة الممكنة لا تتجاوز عالم الظاهر الخارجي للأشـياء، أما عالم الشيء في ذاته أي في حقيقته والـذي لا تصل إليه الحـواس فلا ينتظم في الزمان والمكان، وبالتالـي لا يخضع لمقولات العقل الأولية المتناهيـة والنتيجـة: إننا لن نعرف عنه شـيئاً، فهو خارج نطاق إمكانية العقـل أي خارج حدود المعرفة الممكنة لدى الإنسان لأنه عالم لا متناه في حين أن الذهن البشري متناه ومحدود.

وهكذا تخلص المثالية النقدية عند كانط إلى النتائج التالية:

١ - التجربـة لا توصف قط بأنها ذاتية خالصة أو موضوعية محضة، لأن مادة المعرفة قبل أن تنظمها قوالب العقل هي عبارة عن خليط غير منظم من الإحساسات لا يمكن تسميته معرفة.

ومـن وجهـة أخرى فإن صورة المعرفة قبل أن تملأ بمادة (المعرفة) هي قوالب فارغة لا يمكن تسميتها معرفة.

٢ - المعرفة الوحيدة الممكنة لا تتجاوز ظواهر الأشياء، وهي معرفة محدودة متناهية مشروطة بشرطي الزمان والمكان، وتلك سمة أساسية يتسم بها الفهم (المقولات)، أما اللامتناهي أو عالم «الشيء في ذاته»، فهو موضوع العقل الخالص، والذي يسـعى بصورة دائمة (وغائية) إلى تجاوز حدوده لمعرفة «الشيء في ذاته» ولا يجني من ذلك سوى الوقوع في التناقض.

أسئلة عامة عن الباب الثاني

أولاً: الأسئلة الموضوعية:

(أ) ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة في كل مما يأتي:

١ - العقل عند «لوك» مزود بأفكار فطرية تبنى عليها المعرفة. ( )

٢ - أثبت «هيوم» وجود النفس بواسطة مبدأ «الكوجيتو». ( )

٣ - المعرفة عند أفلاطون مجرد تذكر لما سبق للنفس أن عرفته في عالم المثل. ( )

٤ - العقل عند «ديكارت» أشبه بصفحة بيضاء تخلو من أي معرفة فطرية. ( )

٥ - اتخذ «ديكارت» من اليقين بوجود الله وكماله دليلاً على وجود العالم. ( )

٦ - إن الهدف من الشك عند السوفسطائيين هو الوصول إلى الحقيقة الثابتة. ( )

٧ - الحواس وحدها وليس العقل هي المصدر الوحيد للمعرفة عند «بروتاجوراس». ( )

٨ - المعنى اللفظي لكلمة سوفسطائي هو «المغالط». ( )

٩ - شك الإمام الغزالي في الحواس ولكنه لم يشك في العقل. ( )

١٠ - الصدق والنفع عند «وليم جيمس» كلمتان متناقضتان. ( )

١١ - كان للحدس كوسيلة للإدراك مدلول واحد عند كل من الغزالي وديكارت. ( )

١٢ - يرى «هيوم» أن هناك ضرورة حتمية في ترابط العلة بالمعلول. ( )

١٣ - ترى البرجماتية أن للحقيقة وجوداً مستقلاً مثل الأشياء. ( )

(ب) أكمل العبارات التالية بالمصطلح أو الكلمة المناسبة:

١ - أثبت ديكارت وجود النفس عن طريق مبدأ عقلي يسمى.....

٢ - العملية العقلية التي يتوقف فيها الإنسان عن إصدار حكم تسمى.....

٣ - الأفكار التي يركبها العقل من الأفكار البسيطة يسميها لوك.....

٤ - تعرف الفلسفة المثالية عند كانط باسم.....

٥ - الشك الذي يصطنعه صاحبه للوصول إلى الحقيقة يسمى.....

٦ - المبادئ الواضحة بذاتها والتي لا تحتاج إلى دليل أو برهان على صحتها تسمى.....

٧ - الشك الذي يتوقف فيه الفيلسوف عن إصدار حكم لعجز ألوان المعرفة عن الوصول إلى اليقين يسمى.....

٨ - المعرفة التي لها أسبقية منطقية على التجربة يطلق عليها «كانط» اسم.....

٩ - القوالب العقلية التي تسمح بصياغة معطيات الحس وتكوين الأحكام هي عنصر للمعرفة سماه كانط.....

١٠ - يرجع الأصل في تسمية الفلسفة البرجماتية إلى الفيلسوف الأمريكي.....

جـ - ضع أمام العبارات في المجموعة (أ) ما يناسبها في المجموعة (ب):

أولاً:

(أ)	(ب)
١ - التوقف عن إصدار الحكم بسبب اعتقادهم أن مصادر المعرفة العقلية لا تكفل اليقين.	المذهب النقدي.
٢ - المعرفة الحسية لاتتسم بالكلية والضرورة، والمعرفة اليقينية هي المعرفة العقلية.	المذهب العقلي. المذهب التجريبي.
٣ - يرفضون التسليم بالأفكار الفطرية الأولية.	المذهب المحايد.
٤ - ليس هناك مادة مستقلة، ولاعقل مستقل، بل هناك ظواهر متبعثة في أرجاء المكان.	المذهب الحدسي.
٥ - المعرفة (في نظرهم) ليس مصدرها الحس فقط أو العقل فقط، بل ترجع إليهما معاً.	المذهب الروحي. مذهب الشك المطلق.

ثانياً:

(أ)	(ب)
١ - أول من جعل المعرفة الإنسانية موضوعاً لدراسة مستقلة.	ديكارت.
٢ - زعيم الاتجاه العقلي الحديث، ويلقب بأبي الفلسفة الأوروبية الحديثة.	وليم جيمس.
٣ - فيلسوف ألماني اشتهر بنقده للعقل واستخلاص العناصر الضرورية للمعرفة.	بروتاجوراس. أرسطو.
٤ - يرى أن الإنسان هو مقياس كل شيء، ما هو حق وما هو باطل.	جون لوك.
٥ - يقول إن الخبرة هي القيمة الفورية لما نصفه بأنه حق.	كانط.

د - اختر الإجابة الصحيحة من بين البدائل التي تلي كل عبارة، فيما يأتي:

١ - الشك أحد موضوعات مبحث:

الوجود - المعرفة - القيم.

٢ - «أنا أفكر إذن أنا موجود» - عبارة تنسب إلى فيلسوف اسمه:

كانط - لوك - ديكارت.

٣ - يسمي «كانط» الملكة الذهنية التي تحول الكثرة الحسية إلى حدس باسم:

الحساسية - الفهم - المخيلة.

٤ - الفلسفة المعاصرة التي تربط المعرفة الإنسانية بالنتائج المترتبة عليها تسمى:

الوجودية - التحليلية - البرجماتية.

٥ - وصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق، مرحلة يطلق عليها المتصوفون اسم:

العمل الظاهري - الباطني - الفناء الكامل.

٦ - الفيلسوف الذي دلل عقلياً على وجود الله من فكرة الذات:

كانط - ديكارت - سبينوزا.

٧ - أرجع برجسون المعرفة إلى مصدر داخلي يسميه:

الحدس العقلي - الحدس القلبي - الحدس الوجداني.

٨ - معرفة الحقيقة عند البرجماتيين تتوقف على:

الصدق الذاتي - النتائج المترتبة عليها - تطابقها مع الواقع.

ثانياً: أسئلة المقال

١ - ما مصدر المعرفة في المذهب التجريبي والمذهب العقلي؟
اشرح دور كل من التجربة والعقل في عملية المعرفة عند كل منهما.

٢ - ما وظيفة العقل عند «لوك» في عملية المعرفة؟ وكيف يدرك العقل العلاقات؟

٣ - كيف يحلل «لوك» المعرفة أو الأفكار؟ وضح ذلك بمثال لمعرفة الجزئي، وبمثال آخر لمعرفة الكلي.

٤ - لماذا يذهب «لوك» إلى افتراض أن الشيء يتألف من جوهر وأعراض؟

٥ - ما مصدر المعرفة عند «هيوم»؟ اشرح الفرق بين الأثر الحسي والفكرة عنده.

٦ - ما مصدر الأفكار الكلية عند «هيوم» وكيف تترابط هذه الأفكار؟

٧ - اشرح كيف حلل «هيوم» بعض الأفكار الفلسفية وفقاً لمعيار الصدق لديه.

٨ - ما معيار الصدق في المذهب البرجماتي؟ وما أهم النتائج المترتبة عليه؟

٩ - ما وجه الشبه والاختلاف بين المذهب التجريبي والمذهب البرجماتي فيما يتعلق بمصادر المعرفة؟

١٠ - ما مصدر المعرفة عند «برجسون»؟ وما الفرق بين نظرة العالم ونظرة الفيلسوف للعالم والزمان؟

١١ - قارن بين الشك المذهبي والشك المنهجي من حيث طبيعة وأهداف كل منهما.

١٢ - قد يكون الشك وسيلة للوصول إلى اليقين، وقد يكون الهدف منه هدم أي حقيقة ممكنة - اشرح مستعيناً بمثال لكل منهما.

١٣ - اشرح مذهب بروتاجوراس من خلال عبارته المشهورة:
«الإنسان مقياس كل شيء».

١٤ - ما الحجج التي استند إليها قدماء الشكاكين من اليونانيين في تبرير الشك؟ وكيف يمكنك الرد عليها؟

١٥ - برهن على امتناع الشك المطلق.

١٦ - علل أهمية لجوء العقل الإنساني إلى منهج الشك المؤقت عند ديكارت.

١٧ - كيف انتقل ديكارت من الشك إلى اليقين؟ وما أهمية مبدأ الكوجيتو في فلسفته؟

١٨ - ما موقف ديكارت من المعرفة الحسية؟

١٩ - ما موضوع المعرفة الصوفية؟ وما مصدر هذه المعرفة؟ وما شرطها؟

٢٠ - وضح المراحل التي مر بها الغزالي من الشك إلى اليقين؟
وما درجات اليقين في المعرفة عند «الغزالي»؟

٢١ - ما أوجه التشابه والاختلاف بين منهجي كل من الغزالي وديكارت؟

٢٢ - فسر باختصار مفهوم كل مما يأتي - مع ذكر أمثلة مناسبة:

المجاهدة الصوفية - الحدس العقلي

الحدس الشعوري - الحدس القلبي

٢٣ - لخص أهم الخصائص الأساسية للتصوف الإسلامي الصحيح؟

٢٤ - انقد بعض الممارسات الصوفية الخاطئة في ضوء فهمك لطبيعة الدين الإسلامي وما يدعو إليه من علم وعمل.

٢٥ - ما المقصود بكلمة اعتقادي في الفلسفة؟ ومن هم الاعتقاديون؟

٢٦ - بأي معنى يعتبر العلماء من الاعتقاديين؟

٢٧ - ما وظيفة الجانب القَبْلي في المعرفة عند « كانط»؟

٢٨ - اشرح العبارة الآتية: من وجهة نظر «كانط»: «مادة المعرفة قبل أن تنتظم في قوالب العقل عبارة عن خليط مضطرب، وصورة المعرفة قبل أن تملأ بمادة عبارة عن قوالب فارغة لا معنى لها».

٢٩ - علل لما يأتي:

أ - رفض هيوم لمبدأ السببية في الظواهر الطبيعية.

ب - السوفسطائية ظاهرة ثقافية خلقتها الظروف الاجتماعية والأوضاع السياسية في اليونان.

جـ - هناك «مثال» لكل ما يوجد في عالمنا من أفراد جزئية، في رأي أفلاطون.

٣٠ - كيف ندرك عالم المثل عند أفلاطون؟

قائمة المصادر

الباب الثاني:

١ - تاريخ الفلسفة العربية، جوزيف الهاشم، عبده الحلو - دار المفيد، لبنان، ١٩٨١.

٢ - تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم - دار العلم، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

٣ - بحوث في الفلسفة د. يزبرة شعال - دار الفكر اللبناني ١٩٩٣

٤ - مدخل إلى الفلسفة د. إمام عبدالفتاح إمام - دار الكتب، الكويت، الطبعة السادسة ١٩٩٣.

٥ - أسس الفلسفة د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية، الطبعة السادسة.

٦ - نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسانية، فؤاد زكريا - مكتبة النهضة ١٩٦٩.

٧ - مشكلة الفلسفة د. زكريا إبراهيم - دار القلم، الطبعة الثانية.

٨ - سبينوزا. د. فؤاد زكريا، سلسلة الفكر المعاصر، الطبعة الثانية.

٩ - تاريخ الفلسفة الإسلامية د. عصام الدين محمد علي - منشأة المعارف، الإسكندرية.

١٠ - مدخل إلى الفلسفة، جون لويس، ترجمة أنور عبدالملك - دار الحقيقة، بيروت.

١١ - بعض مشكلات الفلسفة، وليم جيمس، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي - المؤسسة المصرية العامة للكتاب.

١٢ - تطور الفكر الفلسفي، تيودور أويزرمان، ترجمة سمير كرم - دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٣ - مدخل جديد إلى الفلسفة د. عبدالرحمن بدوي.

١٤ - المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت د. محمود حمدي زقزوق - دار القلم، الكويت.

١٥ - دروس في تاريخ الفلسفة د. نجيب بلدي - د. توبقال للنشر، المغرب.

١٦ - الفيلسوف الغزالي إعادة تقييم لتطور منحاه الروحي، منشورات عويدات، بيروت.

١٧ - القضاء والقدر، محمد متولي الشعراوي - دار الشروق.

١٨ - أفلاطون، د. مصطفى غالب، دار ومكتبة الهلال.

١٩ - المذاهب الفلسفية د. عادل العوا.

٢٠ - تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف.

٢١ - ديكارت والعقلانية، جيفيان رودييس لويس - ترجمة عبده الحلو - عويدات - بيروت.
٢٢ - الموسوعة الفلسفية د. عبدالرحمن بدوي (جزآن)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٢٣ - الفلسفة ومباحثها د. محمد علي أبوريان - دار الجامعات.
٢٤ - الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء الأكاديميين، ترجمة سمير كرم.

الباب الثالث

الأخلاق

الفصل الأول: أسس دراسة الأخلاق

الفصل الثاني: القيم الكبرى والعلاقات بينها

الفصل الثالث : الإنسان كائن أخلاقي

الفصل الرابع: مصادر معرفة الخير

الفصل الخامس: مصادر الإلزام الخلقي والمسؤولية الأخلاقية

الفصل السادس : قضايا فلسفية

أسس دراسة الأخلاق

إن معرفة الأسس التي تقوم عليها دراسة علم الأخلاق تتطلب منا، وبالضرورة، التركيز على نقطتين رئيستين هما:

١ - أهمية دراسة الأخلاق والقيم الأخلاقية

٢ - موضوع علم الأخلاق.

أولاً - أهمية دراسة الأخلاق والقيم الأخلاقية:

إذا كان للعلم أهمية في رقي الإنسان وتقدمه من الناحية المادية، فإن للأخلاق أهمية أكبر، لأنها تتصل بالناحية الروحية عند الإنسان. ففي الوقت الذي لا نتوقع فيه من كل إنسان أن يكون عالماً وعلى دراية تامة بكل النظريات العلمية فإننا نتوقع منه أن يدرك معنى الواجب، وأن يهدف إلى تحقيق المبادئ الخلقية من وراء أعماله وتصرفاته.

ولذلك، فإن القيم والمبادئ الأخلاقية من القضايا الرئيسة التي يجب أن يهتم بها كل إنسان في حياته. فكل منا بحاجة إلى مبدأ خلقي لكي يبني عليه تصرفاته ويبرر بالاستناد إليه أعماله، وبالتالي يكون إيجابياً تجاه المشكلات التي تعرض له في هذه الحياة.

من هذا المنطلق، نجد أن الأخلاق قد احتلت في المذاهب الفلسفية المختلفة، وعلى مرّ العصور، مكاناً متميزاً، باعتبارها - منذ نشأة التفكير الفلسفي - مبحثاً أساسياً من مباحث الفلسفة. والأخلاق كما يدرسها الفلاسفة تشكل موضوعاً لعلم يطلقون عليه اسم «علم الظواهر الأخلاقية»[1] الذي يفرض علينا أن نفصل فصلاً تاماً بين دراسة ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. كما يهدف إلى وضع القوانين والمبادئ الأخلاقية العامة التي ينبغي أن يسير بمقتضاها السلوك الإنساني. ومن هنا جاءت أهمية دراستنا للمبادئ والقيم الأخلاقية.

ثانياً - موضوع علم الأخلاق:

كلنا يحكم على الأعمال بأنها خير أو شر، وهذا الحكم متداول بين الناس على اختلافهم وتباينهم في الغايات التي ينشدونها في حياتهم. ولكن، هل يعني ذلك أن كل الأعمال صالحة لأن يُحْكَم عليها

---

(١) يهتم هذا العلم بتعريف الظاهرة الخلقية، ويبحث في نشاط الضمير الأخلاقي، وأصول القواعد الأخلاقية، وصلتها بالعقائد والعرف والتقاليد.

بالخير أو الشر؟ إن هناك أعمالاً غير إرادية تصدر عن الإنسان دون تدخل منه: كالتنفس، ونبضات القلب، وحركة رموش العينين، وهي أعمال لا تشكل موضوعاً لعلم الأخلاق، وبالتالي لا يحكم عليها بالخير أو الشر، ولا يحاسب الإنسان عليها.

أما الأعمال الإرادية التي تصدر عن فاعلها بإرادة واعية، وتفكير عميق في نتائجها، كمن يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه ويخفف من آلامهم، فيفعل ذلك، ومثل من يعزم على قتل إنسان اختلف معه على أمر ما، ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأعمال هي التي يحكم عليها بالخير أو الشر، ويكون الإنسان مسئولاً عنها ويحاسب على القيام بها.

إذن: ما موضوع علم الأخلاق؟

إن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال التي تصدر عن الإنسان بطريقة عمدية، وبإرادة حرة، وبوعي تام بنتائجها، ويمكن الحكم عليها بالخير أو الشر. أما الأعمال التي تصدر عنه بصورة لا إرادية فليست من موضوع علم الأخلاق.

بعد أن عرفنا أهمية دراسة الأخلاق والقيم الأخلاقية، وكذلك موضوع علم الأخلاق، يجدر بنا أن نقف على الأسس العامة التي ترتكز عليها دراسة الأخلاق، والتي يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

أولاً - الأخلاق معيارية:

في الوقت الذي نجد فيه أن العلوم المختلفة كالطبيعة، والكيمياء، والأحياء وغيرها تدرس ما هو كائن، أي تدرس الحالة التي توجد عليها الظواهر الكونية المختلفة، دراسة وصفية دون القيام بعملية تقويمية لها، نجد أن الأمر يختلف بالنسبة لعلم الأخلاق، الذي لا يكتفي بوصف مظاهر السلوك الإنساني فحسب، وإنما يُعنى قبل كل شيء بدراسة ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك. أي أن مهمته الرئيسة، هي إصدار أحكام تقويمية يميز بمقتضاها بين الأفضل والأسوأ، أي بين الخير والشر. والأخلاق بهذه المهمة تعتبر علماً معيارياً (Normative Science) يبحث في المعايير التي يجب أن يخضع لها السلوك الإنساني. تلك المعايير التي تتمثل في المبادئ والقيم أو المثل العليا التي تشكل موضوع علم الأخلاق - كما ذكرنا سابقاً - ويتم بمقتضاها تقويم ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال.

ثانياً - تحقيق المثل الأعلى:

يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية في نمط معيشته، فنحن نرى أن الحيوانات تعيش على نمط واحد لا يتسم بالرقي أو التقدم، فمعيشة القط - مثلاً - قديماً، هي معيشته اليوم. وبناء النحل

لخلاياها الدماسية الشكل قديماً، هو نفس ما تقوم به الآن. أما الإنسان فدائم الترقي والتقدم، لأن أمامه «مثلاً أعلى» يجدّ في الوصول إليه ويسعى إلى تحقيقه.

ولذا، ينبغي أن يكون لكل إنسان «مثل أعلى» يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول إليه. ذلك لأن الإنسان في هذه الحياة تحيط به قوى مختلفة: شهوات تنجاذبه وعوائق وصعوبات جمّة تعترضه، ومؤثرات متباينة تتنازعه، فإن لم يحدد هدفه ويعيّن «مثله الأعلى» تقاسمته هذه القوى واضطربت مسالكه، واختل توازنه. وهكذا نجد أن البحث في طبيعة المثل العليا وكيفية تكوينها يشكل الأساس الثاني لدراسة الأخلاق.

ثالثاً - الأخلاق سلوك عملي:

ينبغي ألا يُفهم أن غرض علم الأخلاق يقتصر على معرفة القواعد والمبادئ الأخلاقية فحسب، وإنما من أغراضه أيضاً التأثير في إرادتنا وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا بصورة تتفق وهذه المبادئ حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ونحقق خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم، فهو يشجع الإرادة على فعل الخير.

وهذا يعني أن علم الأخلاق ليس علماً معيارياً (نظرياً) يضع القوانين العليا والمبادئ الأولى للأخلاق كمعايير يسير بمقتضاها السلوك الإنساني فحسب، وإنما هو أيضاً علم تطبيقي (عملي) يبحث في كيفية تطبيق هذه المعايير على ظروف الحياة وملابساتها. وبهذا لا يكون للقواعد الأخلاقية كيان قائم بذاته، مستقلاً عن مجال التطبيق العملي لأفعال الناس وسلوكهم. فقيمة الخير - مثلاً - تظل عبارة جوفاء لا معنى لها، ما لم تترجم عملياً في سلوك الناس وأفعالهم.

أولاً.. القيم الكبرى والعلاقات بينها

درج الفلاسفة الأوروبيون على تصنيف القيم إلى قيم عقلية وأخلاقية وجمالية يمثلها على الترتيب: الحق، الخير، الجمال. والحقيقة أن هذا التصنيف يعود إلى أفلاطون الذي لم يكن يقيم أي اعتبار لعالمنا المحسوس لأسباب كنا قد أشرنا إليها في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب. ويبدو أن أفلاطون ومن درج على طريقته في التفكير، نظروا إلى الإنسان لا بوصفه كائناً منخرطاً في العالم له مطالب وحاجات مادية تحتم عليه إرضاءها بل فقط بوصفه روحاً يتجاوز هذا العالم بتصور عالم عقلي خالص يكمن وراءه هو العالم الحقيقي.

ولا شك أن هذا التصنيف يعتريه النقص، ويفتقر إلى الواقعية، فهو يهمل ركناً هاماً من القيم يشكل الأساس للقيم الثلاث المذكورة والشرط الذي لا غنى عنه لاهتمام الإنسان بها وبحثه عنها وهذا الركن هو القيم المادية التي تتعلق بالوفاء بحاجات الناس العضوية والقيم الوجدانية المتمثلة في اللذة والألم. فإذا كان صحيحاً أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فالصحيح أيضاً أنه لا يحيا بالعقل وحده، فالعقل الخالص من شأن الله، والإحساس الخالص من شأن الحيوان. أما الإنسان فهو يشغل موقع الوسط بين هذين الحدين، فهو عقل وإحساس معاً، أو قل إنه روح وبدن. ولا يمكن أن يحيا بأحدهما على حساب الآخر إذا ما أريد لحياة الإنسان أن تستقيم، لهذا ترى أن الإسلام أصاب كبد الحقيقة حين أعطى للقيم المادية والوجدانية المكانة التي تستحقها، وعبّر عن دراية عميقة بحاجات الكائن الإنساني عندما فعل ذلك.

فالمسلم يجب عليه - بأمر دينه - أن يضمن لنفسه ما يحصنها ويرضي حاجاتها الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ويمتعها بكل ما أباحه الله لها ولا أدل على ذلك مما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

الأعراف آية (٣٢)

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

القصص (٧٧)

لكن لما كان لا يتسع المقام لمعالجة كل هذه الأنواع من القيم فسنكتفي بتناول ما اتفق على تسميته بالقيم الكبرى (الحق - الخير - الجمال) بالمعالجة بما يمكننا في إيجاز.

- **الحق:**

فالحق أوالحقيقة قيمة ينشدها الناس دائماً، بقدر ما يرفضون نقيضها الذي هو الزيف أو الخطأ أو الكذب. إذاشئنا أن نقف بدقة على معناها فسنجد أنها تقال على أنحاء شتى، لأنه ليس لها معنى واحد بل معان متعددة يكشف عنها الاستعمال. وهي ذات علاقة بالأقوال والأشياء والأفعال. فتراها تقال على القضايا الصحيحة مثل قولنا: الشمس ساطعة. وتقال للدلالة على الخاصية التي يتميز بها ما هو صحيح أو حقيقي. كقولنا: الحرير الحقيقي هو الذي لا يوجد فيه غش. وفي كل الحالات فهي تقوم على المطابقة بين الفكر والواقع أو كما يقال تطابق ما في الأذهان مع ما في الأعيان.

- **الخير:**

أما الخير فنعرفه بأنه الفعل أو السلوك الذي يطابق مستلزمات العقل، ويحقق مثال الإنسان كإنسان، ومعنى هذا أن الفعل يكون خيراً فقط إذا كان يصدر بقصد تحقيق الصلاح للإنسان فاطبة.. ويقف الشر متناقضاً مع الخير بوصفه الفعل الذي يؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين سواء أكان بقصد منفعة شخصية، أم مجرد الإيذاء فحسب.

- **الجمال:**

ويأتي في المقام الثالث الجمال باعتباره قيمة إنسانية سامية تثير في نفوسنا الإعجاب، وتجعلنا نقف مشدوهين أمام جلالها وروعتها وعذوبتها.

ونحن حين نقول عن الجمال إنه قيمة إنسانية، فما ذلك إلا لأنه ليس خاصية جوهرية تقوم بذاتها في الأشياء، بل هو تعبير عن علاقة يشكل الإنسان والأشياء قطبيها الأساسيين فالأشياء حاملة للقيمة الجمالية والإنسان هو الذي يخرج تلك القيمة إلى حيز الوجود، حين يعايش الأشياء، ويتذوقها ويستمتع بها أو قل حين يحولها من أشياء بذاتها إلى أشياء لنا فيها منفعة واستمتاع.

الجمال هو القيمة الوحيدة من بين القيم الكبرى التي لا تقوم على أساس ما تجلبه لنا من فوائد ومنافع. فنحن نستمتع بالسماء المرصعة بالنجوم، وبالعذوبة في وجه طفل بريء، لا لشيء سوى الاستمتاع الخالص. والحقيقة أن الاستمتاع الروحي المذكور لا ينجم عن تأمل الشيء من حيث هو شيء واقعي فحسب، بل من حيث دخوله في علاقة مع المثل الأعلى الروحي الذي ننشده.

على أن القيم المذكورة، وإن بدت كل منها قائمة بذاتها ومستقلة عن القيم الأخرى، فهي متشابكة لدى الإنسان ومتضافرة بحيث يصعب فصل بعضها عن بعض. فأخلاق الإنسان الفاضلة هي التي تدفعه إلى قول الحق ورفض الباطل، والتفحص النزيه والدقيق للحقيقة مهما كلّف ذلك من صعاب، كذلك فإن

الاستمتاع الذي يلقاه في فعله للخير هو ما يدفعه ويشده إلى القيام بذلك الفعل. والواقع أن مرد ذلك التشابك بين القيم إنما يعود إلى أنها كلها تعبير عن تجسيد مثل أعلى إنساني. لكنها تفقد هذه الخاصية لدى الإنسان حين ينحدر بمستواه إلى الحد الذي يكون هدفه الوحيد هو إرضاء الحاجات والمطالب البيولوجية وحدها، ويكف عن الإرتقاء فوق المستوى البهيمي الذي يكون عليه الحيوان.

الفصل الثالث

الإنسان كائن أخلاقي تعريف الخلق ووسائل تربيته وعلاجه

١ - الإنسان كائن أخلاقي:

صحيح أن لدى الإنسان حاجات عضوية يتعيّن عليه تلبية ندائها وإشباعها، وبهذا فهو يتساوى مع الكائنات الأخرى التي تتصرف وفق ما تمليه عليها غرائزها، لكنه من جهة أخرى يختلف عن تلك الكائنات في أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يقاوم دوافعه ويوجّهها وجهة إنسانية، أي أنه يجعلها دوافع في خدمة الغايات عوضاً عن أن تكون دوافع في ذاتها. وقد فطن الفلاسفة منذ البداية إلى أن الإنسان هو وحده القادر من بين كافة المخلوقات على مراقبة حوافزه ووضع حدّ لرغباته، وإعلاء غرائزه، وتصعيدها فقالوا عنه إنه الكائن الذي يسعى دائماً إلى أن يضع نظام القيم الأخلاقي محل نظام الحاجات البيولوجية فاستحق بذلك أن يطلق عليه اسم «الكائن الأخلاقي» دون غيره من سائر الكائنات. وحقيقة الأمر أن الإنسان يكشف باستمرار نقص الواقع القائم وضعفه، فتراه يتطلع إلى تجاوزه، ويطمح إلى بلوغ حالة الكمال التي لم تتحقق أبداً فيه. فحكم الكمال والتطلع إلى الأفضل والرغبة في سد النقص، والانفتاح على المستقبل وآفاقه، إنما تمثل مطامح أبدية لا نهائية لا يمكن إطفاء جذوتها لدى الإنسان ولا تسكينها. والحقيقة أن الإنسان يظل دائماً في حالة حركة دائبة لا تتوقف أبداً وتضع على الدوام أهدافاً أكمل وأعلى وأبعد وترسم باستمرار صورة المثل الأعلى المنشود. وهكذا فإننا حين نقول عن الإنسان إنه «كائن أخلاقي» فإنما نعني أنه المخلوق الوحيد الذي لايقنع بما هو قائم بالفعل بل يحاول دائماً تجاوزه بغية الوصول إلى ما ينبغي أن يكون. ولهذا فإن الحياة الإنسانية الصحيحة، إنما تتمثل قبل كل شيء في إدراك ذلك الكائن الأخلاقي (الإنسان) لذلك التعارض الشديد بين «الكائن الواقعي» بنقصه وضعفه «والكائن المثالي» بكماله وسموه، ومن السعي الدائب إلى تجاوز الحالة الأولى بهدف الوصول إلى الحالة الثانية. وبغير هذه الطريقة لا يصح لنا التفريق بين مملكة الإنسان، ومملكة الحيوان الأخرى التي تقتصر حركتها على إرضاء الغرائز المرتبطة بحاجاتها البيولوجية.

٢ - تعريف الخُلق:

الخلق صفة متأصلة في الإنسان، بل إن هناك من يذهب إلى أنها غريزية فيه. وقد عُرّف الخُلق تعريفات شتى فيها ما نجده في القاموس المحيط بأن «الخُلق هو الطبع والسجية» ومنها تعريف الغزالي بأنه «هيئة

راسخة في النفس وتصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا روية»[1] وعرفه البعض بأنه «عادة الإرادة» فإذا اعتادت الإرادة على العطاء السخي سُميَت هذه العادة بخلق الكرم. وحتى تصدر العادات الطيبة والأفعال الصالحة باستمرار عن الخُلق، وبدون عناء أو ملل لا بد من توافر الوسائل الكفيلة بتربيته.

٣ - وسائل تربية الخُلق:

هناك أمور تعين على تربية الخُلق من أهمها:

أ - توسيع دائرة الفكر: لأن ضيق الفكر يحجب عن العقل رؤية الحق، وتأتي أحكامه ناقصة أو باطلة، مما يجعله مصدراً لكثيرمن الرذائل كالتعصب بشتى ألوانه، وما يثيره من فتن وصراعات.

ب - صحبة الأخيار:[2] الإنسان بطبعه ميال إلى التقليد، فكما يقلد من حوله في أزيائهم، فإنه يقلدهم في أعمالهم ويتخلق بأخلاقهم. فمعاشرة الأخيار تربي الخير في النفوس الشريرة، ومعاشرة الشجعان تلقي الشجاعة في نفوس الجبناء... وهكذا. قال حكيم «أنبئني عمن تصاحب أنبئك من أنت» وفي الحديث الشريف «المرء على دين خليله، فليظر أحدكم من يخالل».

جـ - ترويض النفس على فعل الخير بحيث يصبح لديها «عادة» ويصدر عنها دون عناء أو ملل.

د - أن يكون الخير الهدف الأسمى الذي يتطلع الإنسان إلى تحقيقه في حياته، ويجعله غاية الغايات في كل أفعاله وأعماله.

هـ - الاطلاع على سير الأنبياء والرسل ففي حياتهم من الأعمال الجليلة ما يوحي بالتقليد والاقتداء بهم.

٤ - علاج الخُلق:

إن التخلص من خُلق سيء لا يتأتى عن طريق التفكير الدائم فيه، أو إطالة محاسبة النفس عليه، بل إن ذلك يتم من خلال الاجتهاد في أن يستبدل به خُلق جديد كريم. وفي هذا الصدد يقول «أرسطو»: إذا تعدّى خُلق امرئ حدًّه، فليقومه بالميل إلى ضده. فإذا أحس الإنسان بإفراط في نوع من الشهوات، فعليه أن يضعفه بشيء من الزهد. فمثلاً، على مدمن الخمر ألا يطيل التفكير في إدمانه إلا بمقدار ما يتحول عنه، كأن يوجه اهتمامه نحو أفعال نافعه له ولمجتمعه.

---

(١) ارجع إلى كتاب د. السيد محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، صفحة ١٠ - ١١.

(٢) ارجع إلى كتاب أرسطو في الأخلاق (الكتاب الثامن والتاسع) للإطلاع على ما كاتبه عن «الصداقة».

الفصل الرابع

مصادر معرفة الخير

تمهيد:

تعددت الاتجاهات الفلسفية حول تحديد نوع المصادر التي تعرف الخير بموجبها. وربما يعود ذلك التعدد إلى موقف كل اتجاه من نظرية المعرفة. فقد مرّ بك أن العقليين يرون أن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة بينما يرى التجريبيون أن كل معرفة نتوصل إليها لا بد أن تكون التجربة الحسية المصدر الوحيد الذي تُشتقّ منه، ويحدث الأمر نفسه بالنسبة للأخلاق. فالعقليون والمثاليون يرجعون معرفتنا بالخير إلى العقل كمصدر وحيد لها، سواء أكان فعله في هذا المجال حدسياً أم استدلالياً. أما التجريبيون فإنهم يعودون إلى ميدان التجربة الأخلاقية كما يعيشها الناس، لكي يستلهموا منها معرفة الخير والشر. وتبعاً لذلك ستصنّف الاتجاهات التي عالجت هذه المسألة على النحو التالي:

١ - الاتجاه التجريبي

٢ - الاتجاه العقلي الاستدلالي

٣ - الاتجاه الحدسي

٤ - الاتجاه الديني

أولاً - الاتجاه التجريبي

كما هو معروف لدينا في مبحث نظرية المعرفة، فإن أصحاب المذهب التجريبي الحسي رفضوا فكرة وجود أفكار فطرية يولد الإنسان مزوداً بها ويعرف من خلالها. كذلك أنكروا وجود المبادئ العقلية البديهية ورفضوا الحدس كنور فطري يدرك الإنسان الحقائق من خلاله إدراكاً مباشراً. لقد ردّوا جميع صور المعرفة إلى الحس، ورأوا أن التجربة هي المقياس الذي يفرق بين الخطأ والصواب، والحق والباطل، ولذلك تراهم في دراسة الأخلاق يؤكدون على نسبية القيم واختلاف الأحكام الخلقية باختلاف الزمان والمكان ويردّون معرفتنا بالخير والشر إلى التجربة التي يقف فيها الناس على نوع السلوك الذي يحقق منافعهم أو يؤكد سعادتهم والنوع الآخر الذي يوقع بهم الضرر أو يجلب لهم الشقاء. وعلى هذا النحو أقام التجريبيون الأخلاق على فكرة الجزاء وربطوا بينها وبين نتائج الأفعال دون بواعثها. وقد أجمعوا بهذا الصدد على عدة نقاط أساسية تمثل نظريتهم في الأخلاق:

١ - معرفة الخير تتم من خلال التجربة الحسية.

٢ - الفعل الخلقي لا يستمد قيمته من ذاته وإنما من مصدر آخر هو نتائج الفعل المتمثلة في المنفعة الفردية أو الجمعية.

٣ - وحّدوا بين عدة مفاهيم (اللّذة - المنفعة - السعادة) واعتبروها مجتمعة غاية الفعل الخلقي.

والجدير بالذكر أن المذهب التجريبي يمثله كل من القورينائية والأبيقورية والسوفسطائية عند «قدماء اليونان وهوبز وبنتام» وميل أصحاب مذهب المنفعة، وأصحاب الأخلاق الاجتماعية مثل أوجست كونت الوضعي وهربرت سبنسر التطوري في العصر الحديث. وسوف نختار أصحاب المذهب النفعي كممثل للاتجاه التجريبي.

أصحاب مذهب المنفعة أو اللّذة (Hedonism)

يرى أتباع هذا المذهب أن المنفعة أو اللّذة غاية الأفعال الإنسانية ومقياس لخيريتها. واللذة التي يتخذها النفعيون مقياساً هي «اللّذة» بأوسع معانيها، فهي تشمل اللّذات الحسية والمعنوية والجسدية والعقلية. وفي طليعة الذين أيدوا هذا الاتجاه حديثاً الفيلسوفان الإنجليزيان «بنتام» و «ستيوارت ميل».

١ - جيرمي بنتام: J.Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢م)[١]

حوّل «بنتام» الدراسات الأخلاقية إلى علم واقعي يتميز بالضبط والدقة على أساس نفسي. ففي كتابه «مقدمة لأصول الأخلاق والتشريع» يرى أن ما يحفز الإنسان إلى العمل دائماً هو الرغبة في تحصيل لذّاته الخاصة، وتجنب ما يتعرض له من ألام ومتاعب، حيث يقول «لقد أخضعت الطبيعة بني الإنسان لحكم سيدين ذوي سلطان هما «اللّذة» والألم» إنهما يتحكمان فينا تحكماً يشمل كل ما نفعله وما نقوله وما نفكر فيه من أمور».

لقد منعه تمسكه بالنزعة الواقعية الحسية من تصور «مثل أعلى» يسير السلوك الإنساني بمقتضاه، ولكنه يرى أن على الإنسان حينما يحقق مصلحته الذاتية عليه في الوقت ذاته أن يحقق مصلحة الآخرين. ومن هنا كان شعاره (تحقيق المصلحة الذاتية ومصلحة الآخرين) ولكنه كان أكثر ولاءً للمنفعة الذاتية منه للمنفعة العامة بحيث يمكن الاستغناء عن الصالح العام عند حدوث أي تعارض بينه وبين الصالح الخاص.

٢ - جون ستيوارت ميل:[٢] J.S.Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣م)

يتفق «ميل» مع أستاذه «بنتام» في مبدأ المنفعة العامة، واعتبر الأخلاق علماً وضعياً وليس معيارياً يهتم بوصف سلوك الأفراد وتوجيه نشاطهم نحو سعادتهم وسعادة مجتمعهم. كما يتفق معه في أن المنفعه هي

---

(١) بنتام: عالم إنجليزي اشتهر ببحوثه في الأخلاق والقانون، وهو من أكثر دعاة المنفعة وهو القائل إن «مقياس الخير والشر أكثر لذة لأكبر عدد» وهو أستاذ للفيلسوف «جون ستيوارت ميل»

(٢) ستيوارت ميل: فيلسوف إنجليزي كتب رسالة في مذهب المنفعة عام ١٨٦٣م ويُعد من أكبر مؤسسي المذهب النفعي.

غاية السلوك الإنساني ومعيار للأحكام الخلقية، وبأن الفعل الخلقي لا يحمل قيمته في ذاته وإنما يستمد قيمته مما يترتب عليه من منفعة أو لذة خالية من الألم.

ولكنه يختلف مع «بنتام» في أنه وسّع من قاعدة المنفعة العامة بحيث يكون هناك توافق بين المصالح الذاتية والمصالح الجماعية انطلاقاً من مبدأ «تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس» وهذا يعني أن الإنسان باستطاعته أن يحقق منفعته ومنفعه الغير. وحينما يحدث أي تعارض بينهما يحرص الإنسان على تحقيق النفع العام، لأنه سيحصل على جزء من هذا النفع باعتباره فرداً في المجتمع. وبهذا يرجح «ميل» كفة الإيثار والغيرية على الأثرة والأنانية، على العكس من «بنتام» الذي يرجح كفة الأثرة والأنانية على الغيرية. وقد أشار «ميل» أيضاً إلى أن الشعور بالأنانية يمكن أن يقل تدريجياً إلى أن يتحول إلى الغيرية لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، وبذلك تتحقق السعادة للفرد والجماعة معاً.

«بعد دراستك لرأي كل من «بنتام» و«ميل» في مقياس الخير في الأفعال - انقد هذه الآراء موضحاً أيهما أقرب إلى مبادئنا وقيمنا الدينية».

ثانياً - الاتجاه العقلي الاستدلالي

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإنسان يعرف الخير والشر عن طريق الاستدلال العقلي وليس بالحدس أو التجربة الحسية ولذا فإن الأخلاق في نظر هؤلاء ليست دراسة عملية مرتبطة بزمان ومكان وإنما هي علم معياري يضع القواعد والمثل العليا الثابتة والمبادئ الأخلاقية العامة التي تحكم سلوك الإنسان بما يتفق وطبيعته العاقلة. ودون أن يتوقف ذلك على نتائج الفعل فالفعل الأخلاقي يحمل قيمته في ذاته وهي قيمة ثابتة وليست نسبية لأنها لا تتعلق بالمنفعة أو التجربة، وبذلك تصبح الإنسانية غاية قصوى للواجب بالذات كما عبر عن ذلك «إيمانويل كانْتْ» في فلسفته الأخلاقية وخاصة في معالجته لفكرة الواجب فقد بيّن أن الإنسان يؤدي الواجب لذاته باعث من تقدير عقلي لمبدأ الواجب (أي فعل الواجب من أجل الواجب) دون اعتبار لما يترتب عليه من نتائج. وقد توصل «كانْتْ» إلى هذه الفكرة عن الواجب بعد دراسة قام بها للإنسان من حيث طبيعته وكيفية معرفته للخير والشر فهو يرى أن الطبيعة البشرية تنقسم إلى:

١ - طبيعة حسية: وينتمي بها إلى عالم الأشياء (الواقع).

٢ - طبيعة عاقلة: وينتمي بها إلى عالم المعقولات والملائكة.

والإنسان كائن أخلاقي بطبيعته العاقلة وليس بطبيعته الحسية. وبوصفه على هذا النحو فهو يتصف بالحرية ولذلك تراه يدرك الخير والحق والباطل ويختار من السلوك والأفعال ما يتناسب مع إنسانيته وعقله وحريته، وقد يتساءل بعضهم.. كيف تتفق فكرة الواجب مع الحرية وهما تبدوان متناقضتين؟؟ والواقع أن التناقض يختفي حين نأخذ في الاعتبار ما قلناه قبل قليل، من أن الإنسان ذو طبيعة عاقلة

من صفاتها الحرية. فبالإدراك العقلي يعرف الخير والشر ويستدل عليهما ويميز بينهما وبإرادته الحرة يختار السلوك الذي يتمشى مع القانون الأخلاقي والذي يتناسب ومستواه العاقل، إذن فهو بهذا يتصرف وفق الواجب تلقائياً، أي لا تعارض بين الواجب والعقل والحرية لدى الإنسان الذي يلتزم بفعل الواجب بمقتضى عقله وإرادته الحرة. وبذلك نجد أن «كانْتْ» قد عمم الواجب على الناس جميعاً لاشتراكهم في العقل وحرية الإرادة. وعليه يصبح الواجب قانوناً عاماً للإنسانية صاغه على شكل ثلاث قواعد هي:

أ - افعل دائماً بحيث تكون قاعدة فعلك صالحة عقلياً لأن تكون قاعدة عامة.

ولتفسير هذه القاعدة نسوق هذا المثال: لو أودع شخص عندك وديعة، وتوفي هذا الشخص فهل ترد الوديعة إلى ورثته؟ أم تنكرها. قبل الإجابة ارجع إلى قاعدة «كَانْتْ» الأولى في الواجب فهي ترشدك إلى التصرف السليم في هذا الموقف.

ب - افعل دائماً بحيث تعامل الإنسانية متمثلة في شخصك وفي شخص غيرك على أنها غاية وليست وسيلة.

وهنا يشير إلى احترام الإنسانية فهي في حد ذاتها الغاية التي يتجه إلى تحقيقها السلوك الخلقي الذي يصدر عن كل إنسان، فلدى كل إنسان قيمة مطلقة لا يمكن أن تكون في خدمة أي منفعة مادية أي لا تخون أو تكذب أو تسرق الآخرين، لأن هذه الأفعال تعتبر رذائل وتجعل الآخرين وسائل لتحقيق مطالبنا وهم في حقيقة الأمر ليسوا كذلك حين نحترم إنسانيتهم.

جـ - افعل دائماً بحيث تجعل إرادتك بمثابة مشرع يشرّع للناس قانوناً عاماً.

وهنا يشير إلى حرية الإرادة والتي هي وفق الطبيعة العاقلة لا تتعارض مع الواجب. وهذه القواعد الثلاث تتكامل بعضها مع بعض، وتعبر عن الواجب الذي اعتمده «كَانْتْ» لتفسير فلسفته الأخلاقية بشكل عام.

ثالثاً - الاتجاه الحدسي والحاسة الخلقية

يرى أصحاب المذهب الحدسي أن الإنسان يدرك بوضوح عقلي مباشر معنى الخير والشر دون أن يقوم بأي استدلال، وأية ذلك أن قيمة الخير قيمة أولية واضحة متميزة بذاتها ولذا فهي تُدرك إدراكاً مباشراً، وتتكشف بسهولة ووضوح لدى الإنسان بالحدس العقلي ولا تحتاج إلى استدلال أو برهنة. فمعرفة الخير والشر معرفة كامنة في طبائع البشر لأن الإدراك الحدسي عامل مشترك لدى جميع الأفراد بسبب اشتراكهم في ملكة واحدة هي العقل. والواقع أن هذه الإدراكات للخير والشر هي فضائل أولية كالبديهيات الرياضية والأوليات الهندسية التي تحمل دليلها في باطنها ولذلك فهي واضحة بذاتها، وتبعاً لذلك يرفض الحدسيون الفكرة القائلة إن الإنسان يعرف الخير والشر عن طريق سلطة خارجة عنه غير

قوة الإدراك الحدسي، فالناس لديهم عقل وفهم مشترك يستطيعون بوساطتهما معرفة الخير بذاته كمبدأ من المبادئ الخلقية الأولية، ومن أصحاب هذا المذهب:

هنري كولدر وود: الذي حدّد خصائص المبدأ الخلقي الحدسي على النحو التالي:

أ - أنه مبدأ واضح متميز بذاته.

ب - لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

جـ - ضروري وليس عارضاً، ولا ينطوي على أي تناقض.

د - عام مشترك لدى الناس جميعاً.

هـ - يدركه الناس في كل زمان ومكان.

رابعاً - الاتجاه الديني

جاء الإسلام فدعا إلى الاعتقاد بأن الله تعالى هو مصدر كل شيء في هذا الكون. فكل ما فيه من ظواهر مختلفة ومخلوقات متنوعة، إنما هي عنه صدرت، وبه قامت وانتظمت.

ولكننا نجد اختلافاً في الرأي بين بعض الاتجاهات الدينية بصدد مصدر معرفتنا بالخير والشر نذكر منها الاتجاهين التاليين:

١ - اتجاه أهل السنة والجماعة (أهل النقل):

يرى أهل السنة والجماعة أن ما هو خير أو شر إنما يبيّنه لنا الشرع الذي يأمرنا بفعل الخير، وينهانا عن فعل الشر، وأنه ليس هناك اجتهاد عقلي إلا قياساً على ما جاء به الشرع، على أن تتوافر النية الصادقة، باعتبارها الباعث الحقيقي لكل فعل خلقي حسناً كان أو قبيحاً. ولأهمية النية، يشير إليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ، ما نوى».

وهكذا، يرد أهل السنة والجماعة الخير والشر في الأفعال إلى إرادة الله تعالى. فالخير ما حسّنه الشرع وأثنى عليه، والشر ما قبّحه ونفّر منه. والإيمان بما جاء به الشرع، إنما هو إيمان بصدق ما نزل به الوحي. فالوحي عندهم هو مصدر معرفتنا بالخير والشر، وليس العقل.

٢ - اتجاه المعتزلة (أهل العقل):

أما المعتزلة فيرون أن في الأفعال خصائص ذاتية توجب اعتبارها خيراً أو شراً. والله تعالى يأمر بالخير لأنه حسن في ذاته، وينهى عن الشر لأنه قبيح في ذاته. فالخير هو ما استحسنه العقل، والشر هو

ما استقبحه ونفر منه، لأن الله تعالى قد خلق العقل ولديه القدرة على التمييز بين الخير والشر، أو الحسن والقبح.

وهذا يعني أن العقل عند المعتزلة هو مصدر معرفتنا بالخير والشر، أو الحسن والقبيح، وهو السبيل إلى إرشاد الإنسان من الناحية الأخلاقية وبه يستحق المدح والذم والثواب والعقاب. ولا يختلف هذا مع قواعد الإسلام الأخلاقية التي تقوم على العقل السليم وتعطيه حق الحكم والأمر والنهي. فالقرآن الكريم يقرر أن النفوس طبعت على أساس أن الله تعالى ألهمها فجورها وتقواها. وبذلك لا خلاف عندهم بين ما يعرفه الإنسان بعقله وبين ما يأمر به الدين وما ينهى عنه.

وبناء على اتجاههم العقلي هذا، فرق المعتزلة بين وقوع الفعل مطابقاً للواجب مصادفة، وبين حدوثه من جانب الفاعل وعلى نحو أخلاقي قصداً. فالأول ليس فعلاً أخلاقياً، حتى لو جاء مطابقاً للفعل الأخلاقي، بعكس الثاني الذي توفر القصد فيه، وبذلك سبقوا الفيلسوف (كانْتْ) في تفرقته بين الفعل المطابق للواجب العفوي، والفعل الذي حدث بمقتضى الواجب الذي جاء عن قصد.

(انقد الآراء السابقة في ضوء ما تؤمن به من قيم دينية)

الفصل الخامس

مصادر الإلزام الخلقي والمسؤولية الأخلاقية

هناك عدة مصادر للإلزام الخلقي والمسؤولية الأخلاقية يمكن تصنيفها إلى مجموعتين: مصادر داخلية وأخرى خارجية. فالداخلية هي الضمير الذي يمثل القوة العقلية، والوجدانية التي تلزم الإنسان بفعل الخير، وتنهاه عن فعل الشر. أما الخارجية فهي خارجة عن الذات الإنسانية ولكنها مرتبطة بها وعنصر من عناصر تكوينها، وتتمثل في المجتمع بعاداته، وتقاليده، والدين بشرائعه وتعاليمه، وسوف نفصل ذلك فيما يلي:

أولاً .. الضمير

أ - **تعريف الضمير:** يذهب أنصار الاتجاه العقلي إلى أن الضمير ملكة عقلية خالصة تعمل على إقرار النظام في الميدان العملي لدى الفرد، فتشرع له القوانين الأخلاقية التي تتفق مع ما يقتضيه واجبه كإنسان، ثم تأمره بتنفيذها. أما بالنسبة لأنصار النزعة العاطفية، فالضمير حاسة خلقية قائمة بذاتها وكامنة في أعماقنا كغريزة أودعها الله فينا، تجعلنا نشعر بالخير وتأمرنا بفعله، وبالشر وتنهانا عنه.

ب - **مكونات الضمير:** يتكوّن الضمير من عدة جوانب:

(١) **جانب إدراكي:** وهذا الجانب يعتبره بعضهم فطرياً وبه يعرف الإنسان الخير والشر مباشرة وبدون استدلال، أي أن الضمير لديه القدرة على الإدراك العقلي المباشر بشكل حدسي لما يحمله الفعل الإنساني من قيمة خلقية تعبّر عن الخير أو الشر في ذاتية هذا الفعل.

(٢) **جانب نفسي:** وهنا نجد أن الضمير يتكون بفعل مجموعة مؤثرات نفسية تقع على الفرد من خلال تربيته وبيئته ومكونات شخصيته وأبعادها، فيتبلور وجدانه وانفعاله تجاه الأفعال حيث يستحسن فعلاً أو يستقبح آخر أو يشعر بالارتياح والرضا من فعل ويشعر بالتأنيب والندم من فعل آخر.

(٣) **جانب اجتماعي:** وهذا الجانب يمثل مجموعة الضغوط الاجتماعية وتفاعلات الفرد مع البيئة والمجتمع الذي هو فيه بما يتضمنه هذا المجتمع من عناصر ثقافية كالعادات

والتقاليد والقيم والمفاهيم والأعراف والمعتقدات الدينية والمكونات الحضارية. كل هذا ينعكس على الفرد حين يتفاعل مع المجتمع فتتكوّن لديه حصيلة من المبادئ والقيم والمفاهيم لمعنى الخير والشر.

جـ - **وظيفة الضمير:** تتحدد وظيفة الضمير على أساس ما سبق ذكره حين تحدثنا عن طبيعته الإدراكية والنفسية والاجتماعية، فهو الذي يشكل أساس الإلزام الخلقي لدينا حين يحكم على الفعل بأنه صواب أو خطأ، وكذلك حين يوقع الجزاء المناسب، سواء على هيئة هدوء نفسي وراحة وطمأنينة، أو في شكل تأنيب وقلق، وهو الذي يقوم بتوجيه سلوك الإنسان على ضوء معرفته بالنية السابقة على الفعل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوظيفة للضمير تتوقف على توفر مجموعة شروط تتحدد المسؤولية الأخلاقية على أساسها وهذه الشروط هي:

١ - القدرة على إدراك الخير والشر: وهذه القدرة تجعل الإنسان يميز بين فعل الخير وفعل الشر.

٢ - حرية الإرادة والقدرة على اختيار الفعل بدون قيد أو ضغط خارجي أو داخلي.

٣ - القدرة على أداء العمل وهذه القدرة قد تكون بدنية أو عقلية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك مما يحول دون توافر شروط المسؤولية الأخلاقية.

وحين تتوافر الشروط المذكورة يقوم الضمير بتوقيع الجزاء الداخلي على الإنسان على اعتبار أنه يمثل سلطة داخلية للإلزام الخلقي. وهذا الجزاء يكون إما بشكل رضا أو ارتياح نفسي أو بشكل تأنيب أو ندم كما ذكرنا.

ثانياً .. الدين:

ونقصد بالدين، الأديان السماوية المنزلة سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. ولما كان الله سبحانه وتعالى خيراً بذاته لا يأمر إلا بما هو خير، ولا ينهى إلا عما هو شر فإن الأوامر والنواهي المُوحى بها تشكل الأساس للإلزام الخلقي والالتزام بالسلوك الأخلاقي ويستمد الدين قدرته الإلزامية من الجزاءات التي يوقعها على الفاعل والمتمثلة في الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.

لكن ذلك يتوقف على توافر شروط، لكي يكون في الإمكان توقيع الجزاء الخلقي وشروط المسؤولية الأخلاقية هي:

١ - توافر النية باعتبار أنها المناط الأول والأخير لتكليف الإنسان في فعل الخير وتجنب الشر.

٢ - القدرة على الإدراك السليم الذي يستطيع الإنسان بموجبه التمييز بين الخير والشر.

٣ - توافر الحرية في الاختيار للعمل وفق الإدراك والنية.

وإذا توافرت هذه الشروط تكون المسؤولية الأخلاقية قد اكتملت أركانها في إطار الدين ويترتب عليها الجزاءات الدينية التي أشرنا إليها قبل قليل.

ثالثاً.. المجتمع:

يرى أصحاب المدرسة الاجتماعية في الأخلاق (دوركايم وأنصاره) أن القيم الأخلاقية تتحدد ويصبح لها معنى فقط في المجتمع. فالجماعة هي التي تضع القوانين الخلقية مستوحية ذلك من تجاربها التاريخية وممارساتها التي تراكمت عبر الأجيال، فشكلت بمرور الوقت موروثاً أخلاقياً ينهل منه كل واحد من أفرادها. وبالتدريج يتحول هذا الموروث إلى سلطة ضاغطة تصبح مصدر إلزام للفرد، فلا يعود يتصرف إلا وفق قيم الجماعة وتقاليدها.

شروط المسئولية الأخلاقية:

تتحدد مسئولية الفرد في نظر المجتمع على الأسس التالية:

١ - نتائج الأفعال التي يقوم بها الفرد من حيث نفعها أو ضررها للمجتمع.

٢ - توافر الإدراك السليم للتمييز بين الخير والشر، والقدرة على التبصر بنتائج الفعل مسبقاً.

٣ - توافر قدر من الحرية على العمل في حدود مفهوم الخير والشر.

وعندما تكتمل هذه الشروط للفعل الأخلاقي تكون المسؤولية الأخلاقية قد اكتملت أركانها، ويترتب عليها الجزاءات التالية:

١ - الاستحسان أو الاستهجان الذي يلقاه الفرد من قبل المجتمع بالنسبة لنتائج الفعل.

٢ - الجزاء القانوني الذي تنص عليه التشريعات القانونية.

قضايا فلسفية

الحرية الإنسانية

مقدمة:

مشكلة الحرية هي إحدى أقدم المشكلات التي عرفها تاريخ الفلسفة منذ عصر الفلاسفة السابقين على سقراط وحتى الفلاسفة المحدثين والمعاصرين.

كذلك اتسمت مشكلة الحرية بأهمية خاصة بين مشكلات الفلسفة بالنظر لاتصالها بصميم الوجود الإنساني، سواء على صعيد البحث الأنطولوجي أو على صعيد علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، وقد تعززت هذه الأهمية بصورة متزايدة مع اطراد التقدم الحضاري للإنسانية، بحيث أصبحت تعد في عصرنا الراهن «مفتاح» المشكلات الفلسفية جميعاً.

ولأن الحديث عن الحرية في إطار البحث الفلسفي، يعني تناول هذا المفهوم بوصفه قضية أو مشكلة أنطولوجية، أي بوصفه مشكلة تتعلق بحرية الإرادة الإنسانية على حد تعبير فلاسفة العرب قديماً وحديثاً أو بما أسماه فلاسفة الإسلام «بالجبر والاختيار»، فسوف يتركز حديثنا عن الحرية في الصفحات التالية على هذا البعد الفلسفي لا على البعد السياسي أو الاقتصادي أو المجتمعي لمفهوم الحرية.

استعن بمرجع خارجي واكتب نبذة بسيطة عن المقصود بالحرية السياسية.

مفهوم الحرية:

يشير معنى الحرية بوجه عام إلى انعدام القيد أو القسر على إرادة الإنسان من حيث هو كائن عاقل يتميز على سائر الكائنات الأخرى بصدور أفعاله عن ذاته وإرادته هو. على أن المعنى الفلسفي لكلمة «حرية» اتخذ دلالات شديدة التنوع والاختلاف على مدى تاريخ الفلسفة، فالحرية عند سقراط هي «فعل الأفضل» وهو ما يفترض مقدماً معرفة ما هو الأحسن، وعند أفلاطون تعني الحرية «وجود الخير» والحر من يتوجه فعله نحو الخير، أما أرسطو فنجده يربطها بالاختيار، والاختيار عنده ليس عن المعرفة وحدها بل عن الإرادة أيضاً ومن ثم فهو يعرّف الاختيار أنه اجتماع العقل والإرادة معاً.

كذلك نجد معاني وتعريفات مختلفة لمفهوم الحرية عند فلاسفة العصر الوسيط المسيحيين، والفلاسفة المسلمين، ثم فلاسفة عصر النهضة والعصر الحديث.

أهم السمات المرتبطة بمفهوم الحرية:

في ضوء ما سبق يمكن استخلاص السمات الرئيسة التالية لمفهوم الحرية:

١ - الحرية صفة من صفات الحياة الإنسانية العاقلة: حيث الشعور بالذات، أو التجربة الباطنة التي تدرك الذات فيها بوصفها علة لسائر أفعالها.

٢ - ارتباط الحرية بالفعل، وارتباط الفعل بالتفكير: فالفعل الحر هو الفعل المستنير الذي يصدر عن فهم وتعقل وحسن تقدير للأمور.

وهذا يفسر لنا قدرة إنسان العشرين على استغلال قوانين الطبيعة لصالحه بصورة فاقت بكثير قدرة إنسان القرون السابقة جميعاً، واستخدامه للمعرفة الأشمل والأعمق التي تحققت في هذا القرن، فليس من شك في أن حرية الإنسان المعاصر قد تزايدت بتزايد معارفه العلمية وقدراته التقنية والتي تمثل ثمرة صراع طويل ضد قوى الطبيعة من ناحية وضد قوى الشر والاستبداد والأطماع الإنسانية من ناحية أخرى.

٣ - ارتباط الحرية بالمسؤولية: حيث إن القرار الذي يتخذه الإنسان يرتبط به مصيره ويؤثر في الآخرين وهذا يؤكد أن الصلة وثيقة بين الحياة الخلقية والشعور بالحرية.

الحرية، في أحد جوانبها عملية روحية تشير إلى قدرتنا على التحكم في ذواتنا والسيطرة على ظروفنا الذاتية، فالحرية ليست هبة أو منحة مجانية، بل هي قوة فاعلة وإرادة حرة، أي أنها ليست «حالة» وإنما هي «فعل» نمارس من خلاله وجودنا.

ارتباط مفهوم الحرية بالإرادة:

الفعل الإرادي هو الفعل الذي يختاره الإنسان عن روية وتعقل مع استطاعته عدم اختياره أو اختيار ضده، والحرية هي أن نفعل أولا نفعل بحسب ما نختار أو نريد.

أما الأفعال اللاإرادية فهي التي ليس للإنسان دخل فيها مثل ضربات القلب، تصبب العرق، احمرار الوجه عند الانفعال.. إلخ.

وسوف نعرض فيما يلي لمفهوم الحرية لدى بعض الفلاسفة المسلمين ثم بعض الإتجاهات الفلسفية المعاصرة.

أولاً : مفهوم الحرية عند الفلاسفة المسلمين (مشكلة الجبر والاختيار)

مقدمة:

تثير هذه القضية في الذهن ابتداء سؤالاً هو: كيف تنشأ المشكلة؟

مثال: لو أنني قلت مثلاً: لا أستطيع أن أحكم على (س) من الناس - والذي أعرفه جيداً - بأنه كريم أم بخيل، فكيف نشأت هذه المشكلة في الحكم، إن هذه المشكلة لا تنشأ إلا إذا رأيت من هذا الشخص بعض التصرفات التي تنم عن الكرم وبعض التصرفات الأخرى التي تنم عن البخل، ومن ثم فإنني أتردد في البت في المسألة: أكريم هو أم بخيل؟ ولو أنَّ تصرفاته كلها نمتْ عن الكرم لما وجد ذلك القسم من السؤال: أهو بخيل؟ ولو أنها نمت كلها عن البخل لما وجد القسم الآخر: أم هو كريم؟

وعلى هذا النمط ذاته يأتي السؤال: الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ فلو كان الإنسان يرى نفسه في ظاهر الحياة مجبوراً في كل أفعاله لما نشأت فكرة «أهو مخير» ولو أنه كان مخيراً في كل أفعاله لما نشأت فكرة «أهو مسير»، ومن ثم فإن هناك أفعالاً كثيرة يجد الإنسان نفسه يفعلها دون اختيار منه، فيرى أنه ما دام لم يتوافر له خيار فيها فهو مسيَّر فيها، وكذلك هناك أشياء كثيرة أخرى تقع على حسب ما قدر واختار، وبالتالي يرى نفسه مخيراً فيها، وعلى ذلك فهناك أمور للاختيار هو صاحبها، وأمور أخرى ليس للاختيار دخل فيها، ومن هنا نشأت المشكلة.

والإنسان الذي يدور حوله التساؤل «مسير» هو أم «مخير» هو كائن من الكائنات الموجودة على الأرض، وليس الجنس الوحيد فيها، لكن هذا الكائن امتاز عن سائر الموجودات الأخرى بالفكر، فما معنى الفكر في الإنسان؟ الفكر يعني في الأساس المقياس الذي يختار بين البدائل، والأمر الذي لا بديل فيه لا عمل للعقل فيه، مثل عملية النمو والإحساس، الدورة الدموية.. وغير ذلك مما لا إرادة له فيها، والتي يُعدُّ فيها «مسيراً» شأنه شأن سائر الكائنات الأخرى، أما الأمور التي تعرض الأفعال فيها على العقل: افعل أو لا أفعل؟ فتلك هي حدود أو نطاق الاختيار، وضمن هذه الحدود يقع التكليف الإلهي.

- ما المقصود بالتكليف الإلهي؟

نستخلص مما سبق أن الإنسان مسير ومخير معاً، ونحن نجد في آيات القرآن الكريم نفسه ما يشير إلى «الجبر» ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ (النحل ٣٦) كما نجد في آيات أخرى ما يشير للاختيار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(الكهف ٢٩).

مشكلة الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي:

سنرى في القسم الثاني من هذا الفصل كيف ستتناول الفلسفات الغربية مشكلة الحرية. ولأن هذه الفلسفات نشأت في الغرب وتشكلت بثقافته واتجاهاته الفكرية، فقد كان طبيعياً أن تختلف دراسة هذه المشكلة عندما يتناولها الفلاسفة العرب المسلمون لاختلاف الثقافات والاتجاهات الفكرية. فالفلسفة وإن كانت تبحث في الكليات، لا يمكن إلا أن تتشكل في إطار معطيات الواقع الاجتماعي والحضاري الذي تنشأ فيه.

ويتضح لنا ذلك جلياً عند تناولنا للكيفية التي بحثت بها هذه المشكلة من قبل الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين، بدءاً من التعبير ذاته الذي يصف المشكلة عند هؤلاء الفلاسفة والعلماء، حيث جرت تسميتها بمشكلة «الجبر والاختيار».

والواقع أن هذه المشكلة، أي الجبر والاختيار، تمثل موضوعاً من الموضوعات الأولى التي بدأ بها الفكر الإسلامي، وقد تبلورت هذه البداية في التجربة الكلامية، في أول عهودها داخل ثلاث فرق رئيسية هي: الجبرية، والقدرية، والأشاعرة.

١ – الجبرية:

هم القائلون إن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قوة، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل، وأن الله قدر عليه أعمالاً لابد وأن تصدر منه ومن أشهرهم «الجهميون» أتباع «جهم بن صفوان».

موقف الجهمية من حرية الإرادة (الاختيار)

ينفي القائلون بالجبرية الفعل الحقيقي عن الإنسان ويضيفونه إلى الله، حتى أن الجبرية الخالصة – ومنهم الجهمية – تزعم أن الإنسان على حد تعبير جهم بن صفوان «لا يقدر على شيء» ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا اختيار، والله هو الذي يخلق الأفعال فيه على حسب ما يخلقها في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الأشياء، كما يقال أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، إلى غير ذلك.

وعلى ذلك فالجبرية ينكرون الاختيار ويسندون أفعال الإنسان (العباد) إلى الله، أما الإنسان فلا إرادة له ولا اختيار.

---

* علم الكلام (حسب رأي ابن خلدون) هو العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وعقائد أهل السنة. أي أن موضوع علم الكلام هو العقائد الدينية الإيمانية.

مثال: نقول (سقوط الحجر) ونحن نعلم أن الحجر لا يسقط نفسه بإرادته وإنما نسبنا ذلك إليه على سبيل المجاز.

٢ - القدرية:

وهم القائلون إن الإنسان له قدرة على أعماله وأنه حر الإرادة، ومنهم المعتزلة، وكان لابد للمعتزلة من بحث هذه المشكلة لأنها تمثل مبحثاً أساسياً من مباحثهم وأصلاً من أصول مذهبهم، أو هي على الأقل متفرعة من أصولهم الخمسة.

المعتزلة* وتأكيد حرية الإرادة للإنسان:

ذهب المعتزلة إلى أن أفعال العباد مخلوقة لهم ومن عملهم وباختيارهم المحض، ففي قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها من غير دخل للقدر، وهذا الرأي الذي قال به المعتزلة يجمع بين أمرين:

الأول: إثبات الحرية الإنسانية.

الثاني: تقييد هذه الحرية بمسؤولية الإنسان عن أفعاله، ثم ربطها بالثواب والعقاب كنتيجة لازمة طبقاً لنوعية الأفعال.

والمعتزلة حين أسقطوا عن الله تعالى بعض الأفعال وأضافوها للإنسان، فقد كان ذلك سعياً منهم وراء مزيد من التنزيه للذات الإلهية، فالله تعالى «لا يفعل الظلم ولا يوصف به» وأدلتهم في ذلك ما يلي:

أ - التكليف:

وهم يستندون فيه على فكرة «الثواب والعقاب» إذ يرون أن العبد مثاب على فعله، وفي ذلك دلالة على أن فعله واقع منه، إذ لا يحسن توبيخه أو الثناء عليه بما لا يقع منه، فلو كانت الأفعال بخلق الله لبطلت قاعدة التكليف والثواب والعقاب، ولا يعقل أن يحاسب الله قرناً على فعل ارتكبه إلا إذا افترض فيه الحرية، وإذا كانت حرية الإرادة تعني قدرة العبد على خلق أفعاله بنفسه فهذا لا يعني الشرك بالله لأن القدرة التي أعطاها الله للعبد محدودة عنده لكي تساعد على تنفيذ التكليفات الإلهية.

---

* هم جماعة من المتكلمين أقاموا مذهبهم على النظر العقلي، فهم يؤولون الدين تأويلاً يتفق والعقل، على خلاف أهل السنة الذين كانوا يأخذون بظاهر القرآن والحديث. وقد سمي بيت المعتزلة بهذا الاسم لأن مؤسسها - وهو واصل بن عطاء ٩٤٧م - اختلف مع أستاذه الحسن البصري في مسألة «مرتكب الكبيرة» والعزل عنه فسمي هو وأصحابه «المعتزلة».

نص رقم (١):

إذا رجعنا إلى كتاب «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم، فستجده يقول على لسان المعتزلة: قالوا: «وجدنا من فعل الجور في الشاهد كان جائراً، ومن فعل الظلم كان ظالماً، ومن أعان فاعلاً على فعله ثم عاقبه عليه كان جائراً عابثاً، والعدل من صفات الله والظلم والجور منفيان عنه».

استخرج من النص رقم (١) الفكرة الأساسية التي يدور حولها، ولخصها بأسلوبك.

ب - **العقل وحرية الإرادة:** إن الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً يستطيع أن يميز بين الفعل الاختياري والفعل الاضطراري. (هذه القدرة دلالة على حريته).

وبهذا وقف المعتزلة موقفاً معارضاً لمن يقولون بالجبر - فعلى حين يذهب الجبريون، وعلى رأسهم «جهم بن صفوان» إلى أن الإنسان مجبر ولا إرادة حرة له ولا قدرة على خلق أفعاله، وأنه كالريشة في مهب الريح، ذهب المعتزلة إلى أن إرادة الإنسان حرة وفي استطاعته أن يفعل وأن لا يفعل، وهو يفعل ما يختار.

٣ - الأشاعرة:

تنسب هذه الفرقة إلى مؤسسها «أبو الحسن الأشعري (٩٣٥م)»، فقد نشأ منذ شبابه الأول على مذهب الاعتزال ولكنه لم يلبث أن أعلن على الملأ تحوله عن آراء المعتزلة.

الأشاعرة وحرية الإرادة الإنسانية: (ما حقيقة الفعل الإنساني؟)

يقول الأشاعرة: إن أفعال العباد كلها توجد بالقدرة فقط، أي بقضاء الله وقدره.

ففعل العبد لا يعد فعلاً له على وجه الحقيقة، ولكنه مخلوق لله ومفعول لله أيضاً، وهو ليس فعل العبد نفسه، وإذا كان للعبد ثمة استطاعة، فإن هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل ولا تتقدمه البتة.

العبد إذن عند الأشاعرة «مجبور في قالب مختار» حيث لا توجد للعبد في رأيهم قدرة مستقلة عن الفعل فليس هناك من خالق لأي شيء غير الله وحده، وأن الصحيح هو القول بالكسب.

ثانياً: الحرية في الفلسفة الغربية المعاصرة

أ - مفهوم الحرية في الفلسفة الوجودية (جان بول سارتر) (١٩٠٥ - ١٩٨٠م)

تلعب فكرة الحرية دوراً محورياً في الفلسفة الوجودية بمختلف تياراتها، وسوف نركز حديثنا هنا على أبرز ممثلي هذه الفلسفة وهو الفيلسوف الفرنسي الشهير (جان بول سارتر)، والحرية عند سارتر هي

«الشرط الأول للفعل»، وهي ترتبط بما يسميه الفلاسفة الوجوديون الماهية الخاصة للإنسان. فنحن أحرار في رسم الغايات والقيم التي نسعى إليها، كما نختار الوسائل المؤدية إلى تحقيقها ونظراً إلى الارتباط الوثيق بين مفهوم الحرية عند الفلاسفة الوجوديين ومقولتهم الرئيسة المتعلقة بالوجود والماهية، سوف نعرض بشيء من الإيجاز للعلاقة بين الوجود والماهية عندهم، وبخاصة عند سارتر.

أ - الوجود يسبق الماهية:

- يقصد بالماهية: مجموع الصفات الأساسية الثابتة للذات.
- يقصد بالوجود: الوجود الفعلي للأشياء في عالم الواقع.

ويرى الفلاسفة الوجوديون أن الماهية تسبق الوجود في جميع الأشياء فيما عدا الإنسان، ففي حالة الإنسان يكون الوجود سابقاً على الماهية، فالكرسي الذي تجلس عليه، على سبيل المثال، وجدت ماهيته، قبل وجوده، لأن صانعه تخيله وحدد صفاته قبل أن يقوم بصنعه وإخراجه الفكرة إلى حيز الوجود، وينطبق ذلك أيضاً على كل الأشياء المصنوعة. أما الإنسان فهو وحده الذي يوجد أولاً ثم تتحدد ماهيته بعد ذلك.

كذلك يرى الوجوديون أن هناك نوعين من الماهية:

أ - ماهية عامة للإنسان: وهذه لاحرية له في اختيارها، إذ ليس في وسع الإنسان أن يختار بين فصيلة الماهية الإنسانية وماهية فصيلة أخرى كالقردة أو الطيور أو غيرها.

ب - ماهية خاصة - (أو فردية) للإنسان: وهي الصفات الخاصة بكل فرد على حده والتي تميزه عن بقية الأفراد، كأن يتصف بالجبن أو الشجاعة أو بالبخل أو الكرم، أو أن يصير عاملاً في مصنع أو موسيقياً أو طبيباً أو فلاحاً .. إلخ.

هذه الماهية التي يختارها الإنسان، في مسار حياته، هي التي تمثل ميدان حريته، وهي التي يتوقف عليها مستقبله ومصيره، وفي هذا الصدد يقول سارتر:

نص رقم (١):

«إنني أختار نفسي، ولكن الاختيار لا ينصب على وجودي، بل على الأسلوب الذي أوجد عليه، فالإنسان ليس إلا موقفاً من المواقف، محدد بطبيعته الاجتماعية، ولا يملك اختيار مميزاته الجسمية والعقلية إلا في حدود ضيقة، ولكن بالرغم من هذه التحديات فإن مجال الاختيار يظل واسعاً أمام الإنسان، وهناك فرص كثيرة وغير محددة تعرض له في كل موقف من المواقف، فالشخص الأعمى لا يستطيع أن

يجعل من نفسه طياراً، ولكن مجال الاختيار يظل مع ذلك واسعاً أمامه في أن يصبح أديباً أو مفكراً، أو رجل أعمال إلخ. أي أن حريته تبدو كاملة في اختيار المواقف التي يواجه بها واقعه الفعلي.

- حلل النص السابق واستخلص منه الفكرة الرئيسية.
- ما المواقف الجدية التي أوردها النص؟

مثال: لا يملك الإنسان أن يولد ابنا لمليونير بدلاً من أن يولد ابنا لفقير، ولكن حريته تبدو كاملة رغم ذلك في اختيار المواقف التي يواجه بها هذا الواقع، فالفقير يستطيع من خلال المواقف التي يختارها أن يجعل فقره مصدراً لذله ومهانته، كما يستطيع أن يجعل منه موضع فخره وعصاميته فيصبح شيئاً مرموقاً.

نص رقم (٢) الحرية والمسؤولية:

يختار الإنسان ماهيته بنفسه ويصنع ذاته ويحدد صفاته أيضاً بنفسه وذلك بعد أن يوجد في الحياة. والمفكر الوجودي عندما يتكلم عن رجل جبان، يقرر مسؤوليته عن ذاته دون أو يرجع جبنه إلى سبب وراثي نفسي أو بيولوجي، كما يؤكد أن الجبن ناتج عن سلسلة أفعال قام بها فكونته كذلك.. بينما الآخرون يريدون الإنسان أن يولد بطلاً أو جباناً حتى لا يتحملوا مسؤولية حرية اختيارهم وأفعالهم.

لذلك يقول الناس في قرارة أنفسهم: إن ولدت جباناً تصبح مرتاح البال لأنك لا تستطيع فعل شيء ما، بل ستبقى كذلك طوال حياتك مهما حاولت وكذلك الحال إن ولدت بطلاً.

جان بول سارتر، الوجودية فلسفة إنسانية - ترجمة جنادميان - ص ٣٩ - بيروت للطباعة.

- تستخلص من النص السابق أن الحرية ترتبط بالمسؤولية - أعط أمثلة تؤكد ذلك.

ارتباط الحرية بالمسؤولية:

١ - الحرية هي الامتياز الذي ينفرد به الإنسان من بين سائر الموجودات، إذ هو الكائن الوحيد الذي يملك اختيار ماهيته الخاصة وفق سلسلة الاختيارات المستمرة للذات، فالإنسان لا يختار ما يريد مرة واحدة بل هو في اختيار مستمر ودائم، أي أنه ليس ماهية ثابتة وإنما هي فاعلية مستمرة ونزوع متصل نحو المستقبل، فهو بتعبير الوجوديين ليس سوى مشروع في حاجة إلى التحقيق المستمر.

٢ - ما دام الإنسان حراً في اختيار أفعاله وغاياته فلا بد أن يتحمل المسؤولية عن هذا الاختيار وما ينتج عنه، فالإنسان الحر هو الإنسان الذي يتخذ لنفسه موقفاً ملتزماً، والالتزام يوجب عدم السلبية واتخاذ مواقف إيجابية تتفق مع الغايات التي حددها الإنسان لنفسه.

وشعور الفرد بالمسؤولية ليس قاصراً على مسؤوليته عن أفعاله الخاصة بل هو مسؤول أيضاً عن أفعال الآخرين. فالحرية ليست هدية تهدى للإنسان وإنما هي عبء يلقى على كاهله. هذا الشعور بالمسؤولية هو خير ضمان في نظر «الوجوديين» لكي يقوم كل فرد بعمله في حرية تامة بدون أن يسيء مع ذلك إلى حرية الآخرين.

ب - مفهوم الحرية في الفلسفة البرجماتية (جون ديوي)

الطريق إلى الحرية في الفلسفة البرجماتية، هو امتلاك المعرفة بالواقع وحقائقه بما يمكننا من استخدامها في تحقيق رغباتنا وأهدافنا. من هنا يقول «ديوي» إن الطبيب أو المهندس أو العامل لا يكون حراً في أفكاره وسلوكه إلا بقدر ما يكون على دراية بما هو بصدده. فالفعل الحر هو الذي يصدر عن معرفة مستنيرة بالواقع وتعقل وتقدير للأمور.

ولقد اقترنت الحرية تاريخياً عند الفيلسوف البرجماتي جون ديوي، بالحرية السياسية. وفي القرون الأخيرة (أي من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين) كان الصراع على الحرية ينشأ عن مطالبة الفرد بحريته من استبداد الكنيسة أو الدولة اللتين تدخلتا في كل مظاهر حياته. وفي غضون تلك الفترة ظهرت فلسفات سياسية واجتماعية بعضها يدافع عن السلطة والآخر يدافع عن الحرية. فتجددت المشكلة فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين السلطة والحرية.

وفي رأي ديوي فإن حل المشكلة لا يتأتى بفصل السلطة عن الحرية وإنما في كيفية الجمع بينهما.

وفي هذا الإطار التاريخي يمكن القول إن معنى الحرية هو السعي إلى القوة، والقوة الحقة هي الحكمة في توزيع مختلف القوى وتنسيقها، لأنه حين توجد حرية في مكان فسوف يوجد قيد في مكان آخر.

فلا وجود لحرية مطلقة، كذلك لا توجد حرية لفرد أوجماعة إلا من ناحية علاقة هذه الحرية بحريات الأفراد الآخرين أو الجماعات الأخرى، ورغبة الفرد أو الجماعات في زيادة القوة في زمان معين دليل على الرغبة في تغيير توزيع القوى، أي في الحد من القوى الأخرى في مكان آخر.

الحرية والتربية عند ديوي: جعل ديوي «الحرية» بالمعنى الاجتماعي أساس التربية وأداة لحل المشكلات الأخلاقية.

ومما سبق رأينا أن الحرية ترجع إلى القوة، وأن قوة الفرد (أو حريته) هي قيد على قوة الآخرين، وأن الحرية بوجه عام هي توزيع القوى بين الأفراد والجماعات، وتنطبق هذه المبادئ على الأطفال في المدارس والمنازل وفي المجتمع كذلك. فالطفل في البيت أو المدرسة يرغب في أن يكون حراً، أي

أن يفرض سلطانه ويبرز قوته ولكنه يصطدم بسلطة الأب أو المعلم، والمدرسة صورة مصغرة للمجتمع، ومصلحة المجتمع تتطلب ضبطاً لقوى الأقوى، ومن ثم فلا بد من وجود قواعد تنظيمية تحد من حريات الأفراد وتحسن توزيعها.

وقد تطورت الطرق التربوية فأصبح المعلم مرشداً بعد أن كان في المدرسة القديمة ملقناً، وأصبح عضواً في جماعة تؤدي وظيفة اجتماعية بعد أن كان ممثلاً لسلطة عليا تفرض على المتعلمين.

أسئلة عامة عن الباب الثالث

أولاً: الأسئلة الموضوعية:

أ - ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة في كل مما يأتي:

١ - الإنسان وحده هو الكائن الأخلاقي من بين سائر الموجودات. ( )

٢ - علم الأخلاق علم معياري لأنه يهتم بدراسة أنماط السلوك. ( )

٣ - المجتمع هو مصدر الإلزام الخلقي عند التجريبيين. ( )

٤ - يرد أصحاب الاتجاه التجريبي الإلزام الخلقي إلى اللذة الحسية والمنفعة العملية. ( )

٥ - لا يوجد تعارض بين الحرية والإلزام الخلقي عند «سارتر». ( )

٦ - المجتمع وحده هو مصدر الإلزام الخلقي. ( )

٧ - ربط المعتزلة بين حرية الإرادة والتكليف الإلهي. ( )

٨ - ماهية الإنسان تسبق وجوده عند سارتر. ( )

تابع الأسئلة الموضوعية:

ب - اختر الإجابة الصحيحة فقط من بين البدائل التالية لكل عبارة:

١ - «مقياس الأفعال الخيرة عند أصحاب المذهب العقلي»:

تحقيق المنفعة العامة - تحقيق اللذة الحسية والسعادة - تحقيق غاية إنسانية عليا تتسم بالتجريد

٢ - من شروط المسؤولية الأخلاقية عند أصحاب الاتجاه التجريبي:

توافر النية الخيرة - التبصر بنتائج الأفعال مقدماً - كلاهما معاً

٣ - «لو لم يكن الإنسان حراً لما كان هناك مبرر لنزول التكليفات» تعبر هذه المقولة عن رأي:

الأشاعرة - جهم بن صفوان - المعتزلة

٤ - «الحرية عندهم ليست أمراً فردياً وإنما هي مسألة اجتماعية» المقصود بـ(عندهم):

الوجودية - البرجماتية - المثالية

جـ - أكمل العبارات التالية بالمصطلح أو الكلمة المناسبة:

١ - وفقاً لتعريف الغزالي، «الهيئة الراسخة في النفس هي التي تصدر عنها الأفعال في يسر وسهولة» تسمى.....

٢ - الفرقة الكلامية التي جمعت بين الجبر والاختيار تسمى.....

٣ - «الفعل الذي يختاره الإنسان عن روية وتعقل مع استطاعة عدم اختياره» هذا التعريف يطلق عليه مصطلح.....

٤ - الغايات الأخلاقية لا تتصف بطابع الجبر والإلزام عند أصحاب الاتجاه.....

٥ - ما تتصف به النفس الإنسانية من خير أو شر بحكم الاكتساب والعادة، يعرف باسم.....

٦ - الاتجاه الأخلاقي الذي يرى أن في العقل بعض الحقائق العقلية التي تتسم بالبساطة والوضوح، وبها نستدل على معرفة الخير والشر يسمى.....

٧ - «عش ودع الآخرين يعيشون» شعار يُعبر عن موقف أخلاقي يمثله أصحاب الاتجاه.....

٨ - مسؤولية الفرد أمام ضميره وأمام المجتمع والله وبما يستحق عليه الجزاء، يعرف أخلاقياً باسم.....

ثانيا: أسئلة المقال:

١ - اشرح كل عبارة مما يأتي شرحاً وافياً:

أ - فلسفة الأخلاق معيارية.

ب - لأخلاق جانب عملي.

٢ - فرق بين كل من «الحدس العقلي» و«الحاسة الخلقية» كمصدرين لمعرفة الخير.

٣ - ما رأي الاتجاه التجريبي في مصدر معرفتنا بالخير؟ استخلص النتائج التي توصلوا إليها.

٤ - علل لما يأتي:

أ - رغم أن مشكلة الحرية واحدة فإن المذاهب حولها متعددة.

ب - الحرية والمسؤولية أمران متلازمان عند «سارتر».

جـ - ربط المعتزلة بين عدالة الله وحرية الإنسان.

٥ - ميز بين الصواب والخطأ في العبارات التالية مع التعليق الموجز:

أ - للعوامل السياسية أثر واضح في فلسفة «ديوي» خاصة في نظرته للحرية.

٦ - انسب كل عبارة مما يأتي للاتجاه الذي تمثله مع الشرح:

أ - إن تكليف الله للعباد يقتضي بالضرورة أن تكون لديهم الحرية لتنفيذ هذا التكليف.

ب - إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة.

جـ - إذا رغب العبد فعلاً خلقه الله له.

٧ - يرى «سارتر» أنه على الرغم من التحديات التي تواجه الإنسان فإن مجال الاختيار لايزال شاسعاً أمامه .. وضح معنى هذا القول.

٨ - جعل «جون ديوي» من الحرية - بالمعنى الاجتماعي - حجر الزاوية في التربية والتعليم - وضح كيف طبق ديوي معنى الحرية كما يراه على آرائه في التربية والتعليم.

٩ - ما العلاقة بين الحرية والمعرفة من وجهة نظر جون ديوي؟

١٠ - ما الأدلة التي استند إليها المعتزلة في قولهم بحرية الإرادة الإنسانية؟

١١ - اشرح معنى العبارة التالية:

- الحرية عند البرجماتية ليست أمراً فردياً وإنما هي مسألة اجتماعية.

- انقد «رأي» الجهمية في مسألة الجبر والاختيار.

١٢ - اكتب تقريراً مختصراً عن:

أ - كيف يحمينا الإلزام الخلقي من السلوك اللاأخلاقي؟

١٣ - إذا أغفلنا تطبيق القيم الأخلاقية على ظروف الحياة فلن يكون لتلك القيم أي معنى. اشرح هذا القول؟

١٤ - لماذا نقول إن الإسلام أصاب حين أعطى للقيم المادية المكانة التي تستحقها؟

١٥ - بأي دليل نقول إنه لا يوجد تعارض بين الواجب والحرية عند الفيلسوف «كَانْتْ»؟

١٦ - اشرح بالتفصيل قواعد الواجب عند «كَانْتْ».

١٧ - قارن بين موقف «بنتام» وموقف جون ستيوارت ميل في الأخلاق.

١٨ - ما موقف كل من الاتجاهين (النقلي والعقلي في الإسلام) مع الشرح بالنسبة للخير والشر؟

١٩ - الضمير هو واحد من مصادر الإلزام الخلقي.

- ما مكوناته؟
- ما وظيفته؟
- ما الشروط التي تحدد المسؤولية الأخلاقية على أساسها؟

٢٠ - لا يوقع الدين الجزاء الخلقي إلا إذا توافرت شروط معينة. ما هذه الشروط وما الحكمة من وضعها؟؟

٢١ - من أين تنبع قوة الإلزام الخلقية الاجتماعية؟ وما أسس المسؤولية لدى الفرد؟

٢٢ - «الإنسان كائن خلقي» في ضوء هذه العبارة وضح:

أ - المقصود بالخلق.

ب - وسائل تربية الخلق.

جـ - طرق علاج الخلق السيء.

٢٣ - ما أهمية دراستنا للأخلاق؟

وما الموضوع الذي يدرسه علم الأخلاق؟

قائمة المصادر

الباب الثالث:

١ - فلسفة الأخلاق د. إمام عبدالفتاح إمام - دار الثقافة، القاهرة ١٩٩١.

٢ - الهندسة الوراثية والأخلاق، ناهدة البقصمي - عالم المعرفة، العدد ١٧٤ - الكويت.

٣ - المشكلة الخلقية د. زكريا إبراهيم - سلسلة مشكلات فلسفية (٦)، دار مصر للطباعة ١٩٦٩.

٤ - أسس الفلسفة د. توفيق الطويل - مكتبة النهضة العربية، الطبعة السادسة، ١٩٧٦.

٥ - القيمة الأخلاقية د. عادل العوا - الشركة العربية للصحافة والطباعة ١٩٦٥.

٦ - التفكير العلمي د. فؤاد زكريا - عالم المعرفة - العدد ٣، ١٩٧٨.

٧ - دراسات هيجلية د. إمام عبدالفتاح إمام - دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٤.

٨ - البيولوجيا ومصير الإنسان د. سعيد الحفار - عالم المعرفة العدد ٨٣.

٩ - «الاستنساخ» مجلة العربي العدد ٤٤٨، يونيو ١٩٩٦، والعدد ٤٦٣ يونيو ١٩٩٧.

١٠ - مقالا «الاستنساخ» للدكتور عبدالوهاب المسيري و«استنساخ النعجة دوللي» للدكتور أحمد مستجير في مجلة الهلال، دار الهلال - القاهرة.

١١ - الموسوعة الفلسفية المختصرة - مراجعة د. زكي نجيب محمود (ترجمة جلال العشري).

١٢ - الموسوعة الفلسفية د. عبدالرحمن بدوي.

١٣ - عبقريات فلسفية، كانط، د. زكريا إبراهيم - مكتبة مصر.

الباب الرابع

المنطـــق

تمهيد (المنطق)

الفصل الأول: الحدود المنطقية

الفصل الثاني: القضايا المنطقية

الفصل الثالث: الاستدلال

المنطـــــق

١ - موضوع المنطق

إن كلمة «منطق» العربية مشتقة من النطق أو الكلام، حتى أن كلمة «منطق» تعني في بعض الأحيان «الكلام» كما تقول معاجم اللغة[1]، لكنها تعني بالطبع الكلام الدال على تفكير، لا مجرد خروج همهمات من فم المتحدث أو مجرد أصوات كما يفعل الحيوان. ومن هنا فإن كلمة «المنطق» العربية تجمع بين الكلام والتفكير في آن واحد.

أما لفظ «المنطق» كما هو في اللغات الأوروبية مثل «Logic» في الإنجليزية، «Logique» في الفرنسية، فهو مشتق من الكلمة اليونانية لوجوس «Logos» التي تعني العقل والنطق والكلام ـ الخ. والتي فيها أيضاً جمع بين العقل أو التفكير والنطق أو الكلام، فهي تعني اللغة الاستدلالية.

ويلاحظ أن «أرسطو» لم يستخدم هذه الكلمة أي المنطق، وإنما كانت من وضع تلاميذه فقد كان يطلق على دراساته المنطقية اسم التحليلات أو العلم التحليلي. ومن هنا أصبحت كلمة منطق تطلق على التحليلات النقدية للبنية التي تتألف منها الاستنباطات.

ولكي يتضح لنا موضوع المنطق، فلابد أن نسوق بعض تعريفات المنطق لدى بعض الفلاسفة والمفكرين عبر العصور المختلفة. فقد عرفه «أرسطو» في العصر اليوناني بأنه «آلة العلم أو صورته». وعرفه «القديس توما الأكويني» في العصور الوسطى بأنه «الفن الذي يكفل لعمليات العقل الاستدلالية قيادة منظمة ميسرة خالية من الخطأ». ويعرفه «جيفونز» Jevons في العصور الحديثة بأنه «علم قوانين الفكر».

في ضوء التعريفات السابقة، تبين لنا أن المنطق هو العلم الذي يبحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح، ليضع القوانين الأساسية للفكر. وهذا يعني أن المنطق هو العلم الذي يبحث في التفكير الإنساني، بحيث يميز بين الأحكام والعمليات الذهنية الصحيحة، والأحكام والعمليات الذهنية الفاسدة. وحيث إن التفكير على أنواع كثيرة، فإن المنطق لا يدرس إلا نوعاً واحداً فقط هو التفكير الاستدلالي. أما ألوان التفكير الأخرى (التخيل، التذكر، شرود الذهن، تداعي المعاني .. إلخ) فيقوم بدراستها علم النفس وليس علم المنطق.

وإذا كان المنطق يكشف عن مبادئ الاستدلال الصحيح، فإن ما يهمه هو «الاتساق الذاتي» Self - Consistency أي الترابط بغير تناقض، ترابط الفكر مع نفسه أو اتساق النتائج مع المقدمات

---

(١) انظر مثلاً المعجم الوسيط - الجزء الثاني، دار المعارف، ١٩٧٣، صفحة ٩٣١.

التي صدرت عنها، بغض النظر عن مطابقة هذا الفكر للواقع. وهذا هو المقصود بالقول إن المنطق يهتم «بصورة التفكير» لا بمادته. فصحة الفكر مستقلة عن مضمون الفكر أو مادته. ولذا سمي هذا المنطق باسم «المنطق الصوري» Formal Logic، أو المنطق القديم أو المنطق الأرسطي. فقد كانت الصورة عند أرسطو هي الأساس وهي التي تميز الأشياء وتعطيها سماتها الأساسية. أما المادة فلم يكن لها هذا الاعتبار أو تلك الأهمية التي كانت للصورة. ومن هنا أصبحت صورة الفكر أو الإطار أو الشكل هو الذي يهم، أما المادة فلم تكن لها أهمية كبيرة.

من هذا المنطلق، جاء اهتمام المناطقة القدامى بالمنطق الصوري وحده، حيث كانت مهمته تنحصر في وضع القوانين الصورية التي ينبغي أن يسير عليها التفكير الصحيح، ليصل إلى استنتاجات سليمة، دون أي اهتمام بمضمون أو مادة الفكر نفسه. أما المناطقة المحدثون فقد اهتموا بمضمون الفكر ومادته، وجعلوا المنطق المادي يهتم بتطابق هذا الفكر مع الواقع المادي نفسه. ومن هنا كانت ثورتهم على منطق أرسطو القديم الذي حصر نفسه في القوانين الصورية للتفكير.

وإذا ما حللنا التفكير الإنساني نجد أن له جانبين:

الأول – جانب صوري (صورة الفكر): وهو القالب الشكلي المجرد الذي تصب فيه العبارات والمعاني المختلفة وهو الجانب الثابت من الفكر. مثال: (أ فوق ب).

الثاني – جانب مادي (مادة الفكر): وهو المضمون المادي أو الحقائق والمعاني المختلفة الموجودة في الفكر وهو الجانب المتغير من الفكر. مثال: (العصفور فوق الشجرة).

وتبعاً لانقسام الفكر إلى صورة ومادة، فقد انقسم المنطق بدوره إلى قسمين:

الأول – المنطق الصوري: وهو العلم الذي يدرس الفكر من حيث صورته، وينحصر موضوعه في قوانين الفكر العامة، أي في القوانين الصورية للتفكير.

الثاني – المنطق المادي: وهو العلم الذي يهتم بمضمون الفكر ومادته، ومدى تطابقه مع الواقع. ومهمته تحديد القواعد التي يلتزم بها العلماء في الكشف عن حقائق العلوم المختلفة. ولذا سمي هذا المنطق باسم «منطق العلوم» أو «مناهج البحث العلمي».

٢ – المنطق والحياة اليومية

يظن كثير من الناس أن المنطق إنما يوجد في الكتب فحسب، دون أن تكون له علاقة بالحياة اليومية. غير أن هذا الظن باطل، من حيث إننا نجد كلمات «منطق»، «غير منطقي»، «منطقي»، «لا منطقي»، شائعة

على ألسنة الناس وهي لا تبعد كثيراً في استخدامها اليومي عن الاستخدام الفني لها في كتب المنطق. وإذا كنا نصادف في حياتنا اليومية الكثير من الأحاديث التي تستخدم فيها كلمات «منطقي»، «غير منطقي»، فإننا نصادف أيضاً الكثير من الكلمات المنطقية، بل والمصطلحات الفنية الخاصة التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، ويستعلمها الكتاب في كتاباتهم وتنشرها الصحف اليومية ... إلخ. فكثيراً ما تستخدم كلمات «تناقض»، «تضاد»، «تقابل» في أحاديثنا اليومية. وكثيراً ما يقول أحدنا «أنا مستغرق في العمل»، «العكس صحيح»، «قياسًا على كذا»، «لا أدري أصل الحكاية أو فصلها» إشارة إلى الجنس والفصل اللذين يتم بهما التعريف. هذا إلى جانب كلمات مثل: «كل»، «بعض»، «جزئية»، «كلية» وهذان نقيضان فكيف يتفقان؟ وهذا سلب وذاك إيجاب ... الخ. وهكذا نستطيع أن نفهم أن المنطق ليس غريباً عن حياتنا اليومية كما أنه ليس منعزلاً عن شؤوننا الدنيوية.

ويمكننا أن نفهم أهمية المنطق ومدى الحاجة إليه في حياتنا، من خلال الوظائف التالية التي يؤديها وهي:

١ - يضع المنطق القوانين العامة التي يعمل الفكر بمقتضاها.

٢ - يبين المنطق مواطن الزلل في التفكير وأنواع الخطأ وأسبابه.

٣ - يزودنا المنطق بمهارات التفكير النقدي، ويفيدنا في بناء الشخصية التي لا تسلم بالأمور إلا بإقامة البراهين والأدلة عليها.

٤ - يصف المنطق الطرق المؤدية إلى العلم الصحيح في كل نوع من أنواع العلم، ويناقش الأسس التي تعتمد عليها مناهج العلوم والفرق بين كل علم وقوانين العلم الآخر، أو وجه الشبه بينها.

٣ - المنطق ودراسة التفكير

التفكير المنطقي وغير المنطقي:

لقد رأينا كيف أن المنطق يقوم بمهمة الكشف عن خصائص التفكير المنطقي السليم، واستخلاص القوانين التي تحكم الفكر في سعيه الدائب نحو التوصل إلى الحقائق. ولما كانت الحقيقة هي الهدف الأسمى الذي يسعى الإنسان إلى بلوغها، باعتبارها النتائج الصادقة المعبرة عن طبائع الأشياء، فإن التفكير المنطقي هو الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من الوصول إلى هذه النتائج.

والطريق الصحيح الذي يوصل إلى هذه النتائج الصادقة هو طريق البرهان أو التدليل الذي يبدأ بمقدمات نسلم بصدقها، ثم الربط بين هذه المقدمات مع الالتزام بالقواعد الهامة التي تكفل سلامة التدليل.

أما الإيمان بصدق قضية ما بغير هذا الطريق إنما هو إيمان صادر عن تفكير غير منطقي غالباً ما يؤدي بالإنسان إلى الوقوع في الخطأ، والتخبط في التفكير، مما يبعده عن الحقائق ويجعله غير قادر على حل كثير من مشكلاته وتطوير حياته. والقوانين التي نلتزم بها في تفكيرنا المنطقي تسمى «قوانين الفكر»، وهي التي تمثل - على الرغم من بداهتها وبساطتها - الدعامات الأولى لكل تفكير سليم في أي ميدان من ميادين المعرفة.

٤ - قوانين الفكر

لما كان المنطق هو العلم الذي يضع لنا المعايير التي نقيس بها صحة تفكيرنا أو خطأه، فقد اهتم المناطقة منذ القدم بالكشف عن القوانين التي يخضع لها التفكير الإنساني ويلتزم بها للتوصل إلى الحقائق أو النتائج الصادقة.

وقوانين الفكر التي يرتكز عليها المنطق الأرسطي هي القوانين الثلاثة التالية:

أولاً - قانون الذاتية أو قانون الهوية:

وهو القانون الذي يحكم الفكر بمقتضاه «إن الشيء هو ذات نفسه»، ولا يمكن أن يكون شيئاً غير نفسه، أي أن جوهره ثابت لا يتغير، ويعبر عنه رمزياً: (أ هو أ). ومثال ذلك: «الكتاب هو الكتاب».

ثانياً - قانون عدم التناقض:

وهو القانون الذي يحكم الفكر بمقتضاه «إن الشيء لا يمكن أن يتصف بصفة ما ونقيضها في آن واحد، طالما أن الشيء هو ذات نفسه (قانون الذاتية)». ويعبّر عنه بالصورة الرمزية التالية: «أ لا يمكن أن يكون «ب» و«لا ب» في آن واحد». وهذا يعني أنه يستحيل القول (الكتاب «مفتوح» و«غير مفتوح» في وقت واحد).

ثالثاً - قانون الثالث المرفوع أو الوسط الممتنع:

وهو القانون الذي يحكم الفكر بمقتضاه، بوجوب «أن يتصف الشيء إما بصفة معينة أو بنقيضها». ويعبر عنه بالصورة الرمزية: (أ) لابد أن يكون «ب» أو «لا - ب» ولا ثالث لهذين الاحتمالين. مثال: (الكتاب لابد أن يكون «مفتوحاً» أو «غير مفتوح») ولا ثالث لهذين الاحتمالين.

هذه القوانين الفكرية الثلاثة تستند إلى حقيقة مؤداها، أن كل ما في الكون يتكون من طبائع ثابتة تظل محتفظة بكيانها دائماً وفي كل الظروف. فالإنسان مثلاً هو الإنسان دائماً، وإذا وصفناه بالتفكير فلا يجوز وصفه بعدم التفكير في الوقت نفسه، لأنه إما أن يكون مفكراً أو غير مفكر ولا ثالث لهذين الفرضين.

٥ – أهم موضوعات المنطق

يقسم المنطق إلى .ثلاثة مباحث رئيسة هي:

أولاً – مبحث الحدود أو الألفاظ أو التصورات: وهو الذي يدرس الألفاظ من حيث دلالتها المنطقية، وأنواعها، والعلاقات القائمة بينها، وليس من الوجهة اللغوية أو النحوية.

ثانياً – مبحث القضايا أو التصديقات: وهو الذي يدرس القضايا المنطقية من حيث أنواعها ومعايير صدقها أو كذبها.

ثالثاً – مبحث الاستدلال: وهو الذي يدرس الاستدلال من حيث أنواعه وقواعده وقيمته بالنسبة للفكر الإنساني. ويقصد بالاستدلال انتقال العقل من قضايا سلمنا بصدقها أو صحتها، إلى قضايا أخرى تلزم عنها. أي استنتاج مجهول من معلوم.

أسئلة للمناقشة

١ - عُرِّف علم المنطق بتعريفات عديدة - اذكر ثلاثة من هذه التعريفات مستخلصاً منها موضوع علم المنطق.

٢ - وضح بالشرح والأمثلة المقصود بصورة الفكر ومادته.

٣ - يخضع العقل لقوانين فكرية في الكشف عن الحقائق الصادقة، اشرح هذه القوانين مستعيناً بالأمثلة.

٤ - كيف نفهم مدى حاجتنا للمنطق في حياتنا اليومية؟

٥ - كيف يمكننا التمييز بين التفكير المنطقي والتفكير غير المنطقي؟

٦ - ما الموضوعات الرئيسة التي يقوم المنطق بدراستها؟

الحدود المنطقية

معنى الحد المنطقي:

هو اللفظ الذي يصلح أن تخبر به وحده، أو تخبر عنه وحده.

مثال: لفظ (معدن)، نستطيع أن نخبر به، مثل قولنا (الحديد معدن)، ونستطيع أيضاً أن نخبر عنه، مثل قولنا (المعدن يتمدد بالحرارة) وقد يكون الحد المنطقي اسماً، مثل: (الإنسان حيوان ناطق)، أو فعلاً، مثل: (التفاؤل يزيد من حبنا للحياة)، أو صفة، مثل: (المستقبل مجهول للإنسان). وقد يكون لفظاً واحداً، مثل: (دولة) وقد يكون لفظين مثل: (دولة الكويت)، أو أكثر من ذلك، مثل: (دولة الكويت المنتجة للنفط ...). ويهتم المنطق الصوري بدراسة الحدود المنطقية لمعرفة أنواعها، والفروق المختلفة بينها، ومدلولاتها، وهذا ما سنوضحه فيما يلي.

١ - الكلي والجزئي

تصنف الحدود المنطقية من حيث الكم إلى نوعين:

١ - **الحد الكلي:** وهو لفظ يطلق على أفراد كثيرة تشترك جميعها في صفات واحدة عامة بينها.

مثل: انسان - مدرسة - برج - معهد. ويدخل في هذا النوع من الحدود المعاني المجردة.

٢ - **الحد الجزئي:** وهو لفظ يطلق على فرد واحد معين بذاته مثل: مطار الكويت - مستشفى الصباح. ويدخل في هذا النوع من الحدود، اسم العلم، مثل: محمد وجاسم وليلى، لأن اشتراك عدة أفراد في اسم علم واحد لا يدل على تمتعهم بصفات تميزهم عن ذوي الأسماء الأخرى.

ويمكن تحويل الحد الكلي إلى حد جزئي عن طريق التخصيص، أو إضافة اسم الإشارة إليه. مثل «دولة» حد كلي «دولة الكويت» حد جزئي. «كتاب» حد كلي «هذا الكتاب» حد جزئي.

الكليات الخمس:

الكليات الخمس هي ألفاظ أو حدود كلية قال بها «أرسطو» واضع علم المنطق، وعدل فيها العالم المنطقي «فورفوريوس». وسنعرض لكل منها على النحو التالي:

١ - **النوع:** وهو لفظ كلي يطلق على مجموعة من الأفراد يتشابهون معاً وتجمعهم صفات واحدة مشتركة. مثال: إنسان - شجرة - سيارة. فلفظ إنسان مثلاً «نوع» لأنه يطلق على أفراد كثيرين يشتركون معاً في صفات واحدة وهي «النطق».

٢ - **الجنس:** وهو لفظ كلي يطلق على مجموعة من الأنواع تشترك معاً في صفات عامة كلية تميزها عن غيرها من الأنواع ولا تميز بعضها عن بعض. مثال: حيوان - نبات - جماد.

والنوع والجنس لفظان نسبيان، حيث لا يفهم أحدهما إلا بالنسبة للآخر، كما نلاحظ في الألفاظ السابقة. فلفظ إنسان (نوع)، ولفظ حيوان (جنس)، وكذلك لفظ شجرة (نوع) ولفظ نبات (جنس) ... وهكذا. وتوضح شجرة (فورفوريوس) مراتب الأجناس والأنواع، على النحو التالي:

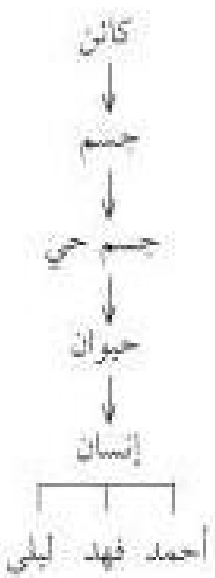

٣ - **الفصل:** وهو صفة كلية ذاتية أي جوهرية أو أساسية في الشيء الذي تصفه. وهي صفة تفصل وتميز بين أفراد نوع معين وأفراد نوع آخر. مثال ذلك: «مفكر» بالنسبة للإنسان، فهي صفة أساسية تفصل الإنسان وتميزه عن غيره من الأنواع، والتي لا يمكن تصور الإنسان بدونها.

٤ - **الخاصة:** وهي صفة كلية غير ذاتية أي غير جوهرية، وليست أساسية في الشيء الذي تصفه، وإنما هي صفة عرضية خاصة، ويمكن تصور الشيء بدونها. مثال ذلك: مخترع أو مدخن بالنسبة للإنسان، فهي صفة غير أساسية لأنها خاصة ببعض أفراد النوع الإنساني، ويمكن تصور الإنسان بدونها. وتقوم الخاصة بتمييز النوع عن غيره لأن الاختراع يعتبر من خواص الإنسان وحده.

٥ - **العرض العام:** وهو صفة كلية غير ذاتية أي غير جوهرية، وليست أساسية في الشيء الموصوف، وإنما هي صفة عرضية له ولا تميزه عن غيره من الأشياء. والصفة العرضية هي التي تكون مشتركة بين مختلف أنواع الجنس الواحد ولا تخص نوعاً دون آخر. مثال ذلك:

النمو - الحركة - الغذاء - التكاثر .. إلخ. فهي صفات لا تميز الإنسان عن غيره من أنواع الحيوانات الأخرى. كالأسد، والفيل، والقط ... الخ.

٢ - تقابل الألفاظ

لو قيل لك إن زيداً من الناس كريم وغير كريم في الوقت نفسه، فإنك ستدرك أن هذا الكلام غير منطقي. وعندما يستحيل إطلاق لفظين على شيء واحد في وقت واحد لتعارضهما، فإنه يقال إن اللفظين متقابلان، والتقابل على نوعين:

١ - **التقابل بالتناقض:** ويكون بين لفظ مثبت ونفيه، أي بين لفظين لا يصدقان معاً في آن واحد على شيء واحد، ولا يكذبان معاً أي لا يرتفعان معاً عن الشيء في آن واحد. مثال ذلك:

(إنسان - لا إنسان) فإما أن يكون الكائن إنساناً أو لا إنسان، ولا ثالث لهذين الاحتمالين.

٢ - **التقابل بالتضاد:** ويكون بين لفظين مثبتين يدلان على صفتين بينهما غاية الخلاف، أي بين لفظين لا يصدقان معاً على شيء واحد في آن واحد، ولكن قد يكذبان، أي قد يرتفعان عن الشيء في وقت واحد لوجود حد وسط بينهما. مثال ذلك: (غني، وفقير) لفظان متضادان لا يجتمعان معاً، كأن نقول: محمد غني وفقير في آن واحد، ولكنهما قد يرتفعان أي يكذبان معاً. فنقول: محمد قد لا يكون غنياً ولا فقيراً، وإنما (متوسط المال).

٣ - المفهوم والمصدق

ذكرنا أن اللفظ الكلي يطلق على مجموعة من الأفراد تشترك جميعها في صفات جوهرية تميزها عن غيرها من الأفراد. وبذلك يكون للفظ الكلي جانبان:

١ - مفهوم اللفظ: وهو مجموع الصفات أو المعاني التي تصف بها هذا اللفظ، وتميزه عن غيره من الألفاظ الكلية.

مثال: مفهوم اللفظ (إنسان) - هو حيوان مفكر أو ناطق.

ومفهوم اللفظ (تاجر) - هو الشخص الذي يعمل بأعمال البيع والشراء ويتخذها حرفة له.

٢ - ما صدق اللفظ: هو مجموع الأفراد الذين يصدق عليهم مفهوم اللفظ.

مثال: ما صدق اللفظ (إنسان) - هو جميع الأفراد الذين تصدق عليهم صفات الحيوانية والتفكير.

وما صدق اللفظ (تاجر) - هو جميع أفراد التجار الذين تصدق عليهم صفات الاشتغال بأعمال البيع والشراء واتخاذها حرفة لهم.

العلاقة بين المفهوم والماصدق.

لما كان (ما صدق) اللفظ هو الأفراد الذين يطلق عليهم اللفظ، وما دام أن (مفهوم) اللفظ هو الصفة أو الصفات التي من أجلها يطلق اللفظ على مسماه، فهناك علاقة وثيقة بين المفهوم وما صدقه، وهي علاقة عكسية، أي إذا زاد المفهوم نقص الماصدق، وإذا نقص المفهوم زاد الماصدق.

فإذا كان المفهوم (حيوان ناطق)، كان المصادق جميع أفراد البشر. وإذا كان المفهوم (حيوان ناطق يجيد قيادة السيارات)، كان الماصدق مقصوراً فقط على الأفراد الذين يتولون قيادة السيارات.

وينبغي معرفة أن العلاقة العكسية بين المفهوم والماصدق، إنما تتوقف على نوع الصفات التي تزيدها أو ينقصها. فمثلاً، إذا قلنا إن مفهوم الحيوان، هو الكائن الحي المتحرك، ثم أضفنا إليه الصفات التالية (النامي والمتغذي والمتنفس ..) فإن هذه الصفات على الرغم من أنها تمثل زيادة في المفهوم، فهي لا تنقص من ما صدق الحيوان، لأنها مازالت من الصفات الذاتية للفظ حيوان. بينما لو زدنا صفة (المفكر) لحصرنا الماصدق المنطق حيوان في أفراد الإنسان فقط.

٤ - التّعريف

التعريف في المنطق، هو توضيح معنى لفظ مبهم أو غامض، وتحديد هذا المعنى بحيث يمكن تمييز الأفراد الذين يدل عليهم اللفظ من الأفراد الذين لا ينطبق عليهم.

تعريف منطقي:

ينقسم هذا التعريف إلى قسمين رئيسين:

١ - **التعريف بالحد:** وهو التعريف الذي يحدد لنا الشيء المعرّف بحيث يميزه عن غيره، ويحلل لنا ماهيته أي صفاته الجوهرية الأساسية. وينقسم التعريف بالحد إلى قسمين:

أ - التعريف بالحد التام: ويتم بذكر الجنس القريب والفصل. مثال: الإنسان حيوان ناطق.

ب - التعريف بالحد الناقص: ويتم بذكر الجنس البعيد والفصل .. أو الفصل فقط.

مثال: الإنسان جسم حي ناطق، أو الإنسان ناطق.

٢ - **التعريف بالرسم:** الذي يحدد لنا الشيء المعرّف ويميزه عن غيره، ولكنه لا يحلل ماهيته أي لا يعطينا صفاته الجوهرية الأساسية لأنه يعتمد على صفاته الخاصة به. والتعريف بالرسم على نوعين:

أ - التعريف بالرسم التام: ويتم بذكر الجنس القريب والخاصة مثال: الإنسان حيوان مخترع.

ب - التعريف بالرسم الناقص: ويتم بذكر الجنس البعيد والخاصة، أو الخاصة فقط.

مثال: الإنسان جسم حي أنيق أو الإنسان مخترع.

ويجب ملاحظة أن التعريف بالحد يتصف بالصعوبة، لأنه يتطلب معرفة دقيقة بالصفات الأساسية للألفاظ المراد تعريفها كما يتصف بالدقة لأنه يعتمد على تحليل ماهية الشيء المراد تعريفه، أي ذكر صفاته الجوهرية، وليس صفاته العرضية، وهو بذلك أكثر دقة من التعريف بالرسم، الذي يعتمد على الصفات العرضية غير الأساسية. وكذلك يتصف بالتعريف بالحد بأنه جامع مانع. ويقصد بجامع أنه يجمع كل أفراد المعرّف، ويقصد بمانع أنه يمنع من دخول أفراد غير أفراد المعرّف، في التعريف. مثال: (الطائر حيوان له ريش)، هذا التعريف جامع، لأنه يجمع كل أفراد الطيور، ومانع لأنه يمنع أي أفراد أخرى من أنواع الحيوان غير الطيور من الدخول في التعريف.

أسئلة وتطبيقات

١ - وضح المقصود بالحد المنطقي، ثم عيّن الحدود المنطقية في العبارات التالية:

أ - المثلث سطح مستو محاط بثلاثة أضلاع مستقيمة ومتقاطعة.

ب - الطالب المجد في استذكار دروسه يجيب بمقدرة فائقة عن أسئلة الامتحان.

جـ - المستشفى بناء يعالج فيه المرضى.

د - الناس المتفائلون ناجحون في حياتهم.

هـ - المرأة القادرة على تربية أبنائها تستحق التقدير.

٢ - «تصنف الحدود المنطقية من حيث الكم إلى حدود كلية وأخرى جزئية» في ضوء هذه العبارة، وضّح الحدود الكلية والجزئية فيما يأتي:

مدير الجامعة - مستشفى - ميناء - مجرى - مدرسة - الخليج العربي - شكل هندسي - فيلسوف يوناني - كتاب المنطق - طائر - ثمار النخيل.

٣ - هات الأجناس للألفاظ التالية:

مسجد - مربع - أسد - برتقال - ذهب - شجرة - حديد.

٤ - اذكر نوعاً واحداً لكل من الألفاظ التالية:

نبات - معدن - كوكب - سيارة - جماد - كائن حي.

٥ - هات الجنس القريب والجنس البعيد لكل من الألفاظ التالية:

مسرح - تفاح - حيوان - فيل - المثلث.

٦ - بيّن الفرق بين الفصل والخاصة - ثم هات الفصل والخاصة لكل مما يأتي:

مدرسة - الإنسان - مطار - المربع - المسجد.

٧ - وضح المقصود بالتقابل بين الألفاظ، ثم اذكر ما يقابل الألفاظ التالية مرة بالتناقض وأخرى بالتضاد.

مذنب - ساخن - شريف - عالم - واسع - أبيض - طويل.

٨ - اشرح المقصود بالمفهوم والماصدق - ثم وضّح العلاقة بينهما، مع إعطاء أمثلة.

٩ - وضّـح التعريفات المنطقية والتعريفات غير المنطقية فيما يلي مع بيان السـبب في كل حالة:

أ - النفس هي مجموع القوى النفسية.

ب - الطائر حيوان يبيض.

جـ - الثروة هي المال الذي يملكه الإنسان.

د - الجائز هو ما ليس بواجب أو مستحيل.

هـ - المسجد بناء له سور.

و - الإنسان حيوان مخترع.

ز - الأسد ملك الغابة.

١٠ - ما الفرق بين التّعريف بالحد والتّعريف بالرسـم، ولماذا لا يجوز استخدام العرض العام في التّعريف؟

* * *

الفصل الثاني

القضايا المنطقية

معنى القضية المنطقية:

الجملة في اللغة العربية نوعان:

١ - **جملة خبرية:** وهي التي تحوي خبراً معيناً يحتمل الصدق أو الكذب، مثل قولنا: (الفاكهة مفيدة)، (البحر هائج). وتسمى هذه الجمل في المنطق بالقضايا المنطقية.

٢ - **جملة إنشائية:** وهي التي لا تنطوي على خبر ما، وبالتالي لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، كالأمر (افعل الخير دائماً)، والنهي (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد)، والاستفهام (هل جاء صديقك؟) والتمني (ليت الشباب يعود يوماً)، والتعجب (ما أروع الشمس وقت الغروب!). وهذه الجمل جميعها لا تعد قضايا منطقية، وإنما هي أساليب إنشائية.

فالقضية المنطقية إذن، هي الجملة الخبرية التي تفيد خبراً معيناً أو حكماً معيناً، يحتمل الصدق أو الكذب. مثال ذلك: الأمم المتحدة تصون السلام العالمي - هذه قضية تحتمل الصدق أو الكذب.

أجزاء القضية المنطقية

تتكوّن القضية المنطقية من ثلاثة أجزاء هي:

١ - **الموضوع:** وهو طرف القضية الذي يخبر عنه أو يحكم عليه. وهو الحد المنطقي الذي تبدأ به القضية المنطقية ولا يكون إلا اسماً، مثال: التلفاز إذاعة مرئية.

٢ - **المحمول:** وهو طرف القضية الذي يخبر به أو يحكم به، وهو الحد المنطقي الذي تنتهي به القضية. ويمكن أن يكون اسماً مثل: (الكفاية والعدل هدف الإسلام)، أو فعلاً مثل: (المنطق ينظم تفكيرنا)، أو صفة مثل: (البخيل مذموم).

٣ - **الرابطة:** وهي الأداة التي تربط بين طرفي القضية (الموضوع والمحمول)، وهي لا تظهر لمقتضيات لغوية، مثل: (يكون أو هو ...) وقد تكون الرابطة موجبة، وهي بذلك تفيد علاقة اتصال بين الموضوع والمحمول، وقد تكون سالبة وتفيد علاقة انفصال بينهما.

مثال: كل شعوب العالم العربي تسعى للتقدم - قضية موجبة تفيد اتصال الموضوع والمحمول. كل الدول الاستعمارية لا تناصر الحركات التحررية - قضية سالبة تفيد انفصال الموضوع عن المحمول.

* من أنواع القضايا المنطقية:

- التصنيف الرباعي للقضايا الحملية:

للقضية الحملية في المنطق الأرسطي تقسيم رباعي مشهور يقوم على أساس الكم (كلية وجزئية)، والكيف (موجبة وسالبة).

ويعني «كم» القضية، مقدار الحكم فيها من حيث شموله كل أفراد الموضوع أو بعض أفراده. والقضية من حيث الكم نوعان:

أ - **القضية الكلية:** وهي التي نحكم فيها على كل أفراد الموضوع، مثل قولنا: (كل متسامح مهذب).

ب - **القضية الجزئية:** وهي التي نحكم فيها على بعض أفراد الموضوع، مثل قولنا: (بعض الدواء حلو المذاق).

أما (كيف) القضية، فيعني نوع الحكم فيها هل هو بالإثبات أو بالنفي. والقضية من حيث الكيف نوعان:

أ - **القضية الموجبة:** وهي التي تحكم باتصال المحمول والموضوع، مثل قولنا: (كل إنسان فاضل).

ب - **القضية السالبة:** وهي التي تحكم بانفصال المحمول عن الموضوع، مثل قولنا: (لا خائن شريف).

وهكذا، فإن القضايا الحملية تقسم إلى أربعة أقسام هي:

١ - **قضية كلية موجبة:** ورمزها (ك م)، وتفيد ثبوت الحكم على كل أفراد الموضوع، مثال: (كل الطلاب مجتهدون).

٢ - **قضية كلية سالبة:** ورمزها (ك س)، وتفيد سلب الحكم عن كل أفراد الموضوع، مثال (لا مجاهد في سبيل الله يقبل الهزيمة).

٣ - **قضية جزئية موجبة:** ورمزها (جـ م)، وتفيد ثبوت الحكم على بعض أفراد الموضوع، مثال: (بعض الناس سعداء).

٤ - **قضية جزئية سالبة:** ورمزها (جـ س)، وتفيد سلب الحكم عن بعض أفراد الموضوع، مثال: (ليس بعض الأماني أحلاماً).

سور القضية الحملية:

يقصد بسور القضية اللفظ الذي يدل على الحكم فيها. وسمي سوراً لأنه يحصر القضية، وهو الذي يحدد الكم والكيف في القضايا الحملية. وفيما يلي سور القضايا الحملية الأربع:

١ - **سور الكلية الموجبة (ك م):** كل، جميع، كافة، عامة .. وما في معناها.

٢ - **سور الكلية السالبة (ك س)**: كل - ليس ... لا ... لا شيء ... لا واحد من ...

٣ - **سور الجزئية الموجبة (جـ م)**: بعض ... معظم ... كثير من ... قليل من ...

٤ - **سور الجزئية السالبة (جـ س)**: ليس بعض ... ليس معظم ... وما في معناهما.

ملاحظات حول كم وكيف القضايا الحملية:

١ - إذا كان موضوع القضية لفظاً جزئياً كاسم العلم، فهي قضية شخصية. وتعتبر من حيث الكم في حكم الكلية، على الرغم من أن موضوعها لا يتعدى فرداً واحداً، مثال: (جاسم طالب مجتهد).

٢ - إذا كانت القضية لا سور لها، تسمى بالقضية المهملة. ويحدد سورها بمقتضى طبيعة الحكم فيها أو حسب معناها، كقولنا (النمور جارحة) فهي قضية كلية وقولنا (البقر من الحيوانات المتوحشة)، قضية جزئية ويتم التحديد من واقع الخبرة والمعرفة والممارسة.

٣ - إذا كانت القضية تعبّر عن قانون عام فهي في حكم الكلية، مثل قولنا: (المعادن تتمدد بالحرارة)، فهي قضية كلية.

٤ - تكون القضية سالبة إذا كانت أداة السلب جزءاً من سور القضية أو فاصلة بين الموضوع والمحمول. أما إذا كانت أداة السلب جزءاً من الموضوع أو المحمول، فالقضية موجبة وليست سالبة.

مثال: كل الشعوب المجاهدة ليست مغلوبة على أمرها. (سالبة).

كل الشعوب التي ليست مجاهدة مغلوبة على أمرها. (موجبة).

٥ - أداة النفي (لا) لا تعتبر أداة سالبة إذا جاءت وسط ألفاظ القضية إلا إذا جاء بعدها (فعل)، أما إذا جاء بعدها (اسم)، فالقضية موجبة.

مثال: كل المستعمرين لا يؤمنون بحق الشعوب في الحرية. (سالبة).

كل العقد النفسية لا شعورية. (موجبة)

استغراق الحدود في القضايا

معنى الاستغراق:

الحد المستغرق في القضية المنطقية هو الحد الذي يقع الحكم على كل أفراده سواء كان هذا الحد موضوع القضية أو محمولها، فنقول إن موضوع القضية مستغرق، إذا كان الحكم في القضية يشمل كل أفراده. وكذلك نقول عن المحمول إذا كان الحكم يشمل جميع أفراده.

ويكـون الحد في القضية غير مـستغرق إذا كان الحكم يقع على بعض أفـراده فقط. وبهذا المعنى نتناول الموضوع والمحمول في القضايا الأربع على النحو التالي:

أولاً: الكلية الموجبة (ك. م) - «كل إنسان فان»، الموضوع فيها (إنسان) مستغرق، لأن الحكم يشمل جميع أفراده، ولكن المحمول (فان) غير مستغرق، لأنه لا يفيد دخول كل أفراد المحمول في أفراد الموضوع.

ثانياً: الكلية السالبة (ك. س) - «لا ذكي فاشل»، الموضوع «ذكي» والمحمول «فاشل» فيها، كلاهما مستغرق، لأن الحكم هنا يفيد انفصال جميع أفراد الموضوع عن كل أفراد المحمول، كما يفيد انفصال جميع أفراد المحمول عن كل أفراد الموضوع.

ثالثاً: الجزئية الموجبة (ج. م) - «بعض الجبال شاهقة الارتفاع»، الموضوع «الجبال»، والمحمول «شاهقة الارتفاع» غير مستغرقين، لأن الحكم لا يشمل كل أفراد الموضوع، كما لا يشمل كل أفراد المحمول.

رابعاً: الجزئية السالبة (ج. س) - «ليس بعض الطيور مفردة»، الموضوع «الطيور» ليس مستغرقاً، لأن الحكم لا يشمل جميع أفراده، ولكن المحمول «مفردة» مستغرق لأن الحكم يفيد انفصال كل أفراد المحمول عن بعض أفراد الموضوع.

ويمكن أن نلخص أحكام الاستغراق في القضايا الحملية الأربع في الجدول التالي:

القضية	الموضوع	المحمول
ك م	مستغرق	غير مستغرق
ك س	مستغرق	مستغرق
ج م	غير مستغرق	غير مستغرق
ج س	غير مستغرق	مستغرق

وبمراجعة الجدول أعلاه يتبين لنا ما يلي:

١ - القضية الكلية الموجبة (ك م): تستغرق موضوعها فقط.

٢ - القضية الكلية السالبة (ك س): تستغرق موضوعها ومحمولها معاً.

٣ - القضية الجزئية الموجبة (ج م): لا تستغرق موضوعها ولا محمولها.

٤ - القضية الجزئية السالبة (ج س): تستغرق محمولها فقط.

أسئلة وتطبيقات

١ - عرّف القضية المنطقية، ثم بيّن أجزاءها، مع إعطاء أمثلة.

٢ - «القضية الحملية من حيث الكم والكيف تنقسم إلى أربعة أقسام» وضح هذه الأقسام بالأمثلة.

٣ - ما معنى الاستغراق في المنطق؟ وأي القضايا تستغرق موضوعها، وأيها تستغرق محمولها في القضايا الحملية الأربع؟ مثل لكل منها.

٤ - بيّن نوع كل من القضايا التالية من حيث الكم والكيف، ثم بيّن الحدود المستغرقة في كل منها:

أ - قليل من الناس من يعرف الحق ويعمل به.

ب- لا ذكي فاشل.

جـ- ليس كل الضحك دليلاً على السرور.

د - كل ما ليس له قيمة مادية جميل.

هـ- بعض المواصلات لاسلكية.

و - كل لا شعور لا وعي.

ز - لا جميل يستحق الذم.

ح - ليس كل الطيور تقوى على الطيران.

الاستدلال

تعريف الاستدلال:

هو عملية عقلية ينتقل الفكر فيها من قضية منطقية أو أكثر إلى قضية منطقية أخرى بينهما ارتباط من نوع معين. وتسمى القضية التي نستنتجها (نتيجة)، والقضية أو القضايا التي نستنتج منها (مقدمة أو مقدمات) ولهذا فإن كل استدلال ينطوي على ثلاثة عناصر:

١ - مقدمة أو مقدمات هي موضوع الاستدلال.

٢ - نتيجة لازمة بالضرورة عن هذه المقدمات.

٣ - علاقة منطقية بين المقدمة أو المقدمات والنتيجة.

أنواع الاستدلال

ينقسم الاستدلال في المنطق الأرسطي (الصوري) إلى نوعين:

أولاً: الاستدلال المباشر:

وفيه نستنتج من مقدمة واحدة نتيجة تلزم عنها بالضرورة. كما نستطيع صدق أو كذب قضية على افتراض صدق أو كذب قضية أخرى.

وللاستدلال المباشر عدة أنواع تدرس منها الأنواع الثلاثة التالية:

١ - الاستدلال المباشر بوساطة تقابل القضايا.

٢ - الاستدلال المباشر بوساطة العكس المستوي.

٣ - الاستدلال المباشر بوساطة نقض المحمول.

ثانياً - الاستدلال غير المباشر (القياس)

القياس كما يعرّفه العرب هو قول مؤلف من قضايا متى سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر اضطراراً، أو هو قول مؤلف من قضيتين يلزم عنهما قضية ثالثة. وتسمى القضيتان بالمقدمتين، كما تسمى القضية اللازمة عنهما بالنتيجة. وفي القياس ينتقل الفكر من الحكم على الكل إلى الحكم على الجزء الذي يدخل تحت هذا الكل.

أولاً – الاستدلال المباشر

بوساطة تقابل القضايا

معنى تقابل القضايا:

القضايا المتقابلة هي القضايا التي تتفق في الموضوع والمحمول وتختلف في الكم أو الكيف أو كليهما معاً.

مثال:

كل العرب أحرار (ك م)

لا عربي حر (ك س)

بعض العرب أحرار (جـ م)

ليس بعض العرب أحراراً (جـ س)

وكل قضية من هذه القضايا الأربع تقابلها القضايا الثلاث الأخرى.

فالقضية (ك م) تقابلها القضايا الثلاث الأخرى (ك س) (جـ م)، (جـ س) .. وهكذا. ويترتب على ذلك أن الاستدلال المباشر بوساطة تقابل القضايا، يعني أنه من افتراض صدق أو كذب إحدى القضايا الأربع يمكن استنتاج صدق أو كذب القضايا الثلاث الأخرى المتحدة معها في الموضوع والمحمول.

أنواع التقابل وأحكامه:

التقابل بين القضايا على أربعة أنواع هي:

أ – التقابل بالتضاد.

ب – التقابل بالتناقض.

جـ – التقابل بالدخول تحت التضاد.

د – التقابل بالتداخل.

ولمعرفة هذه الأنواع وبيان القضايا المتقابلة في كل نوع منها، يمكن توضيحه على مربع التقابل أو مربع أرسطو، وذلك على النحو التالي. كما هو في الشكل رقم (٥):

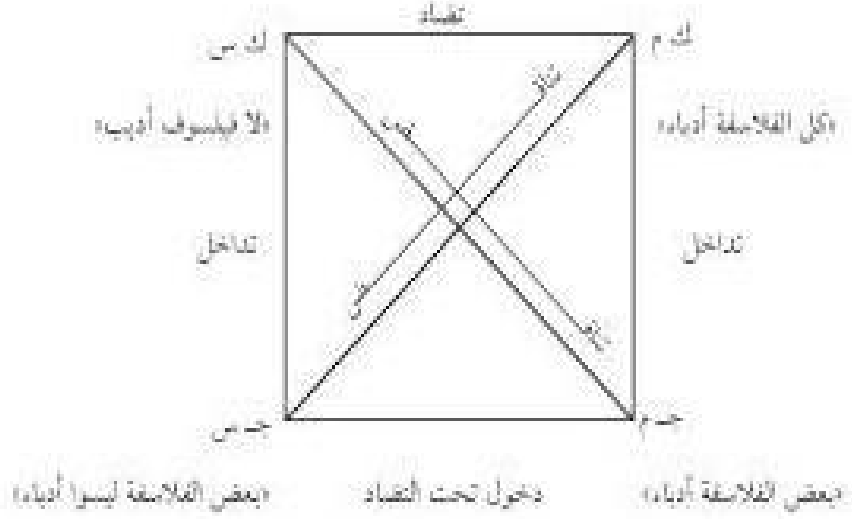

شكل رقم (١)

أ - التقابل بالتضاد: ويكون بين قضيتين كليتين مختلفتين في الكم (ك م) (ك س).

وحكمه: القضيتان المتقابلتان بالتضاد لا تصدقان معاً، ولكن قد تكذبان معاً.

فإذا كانت القضية (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - صادقة.

فإن القضية (ك س) - لا فيلسوف أديب - كاذبة.

أما إذا كانت القضية (ك م) - كاذبة، فإن القضية (ك س) تكون إما صادقة أو كاذبة، ولذلك نقول عنها (غير معروفة أو مجهولة). وكذلك إذا كانت القضية (ك س) كاذبة، تكون القضية (ك م) غير معروفة.

ب - التقابل بالتناقض: ويكون بين قضيتين مختلفتين في الكم والكيف معاً (ك م، جـ س) (ك س، جـ م).

وحكمه: القضيتان المتناقضتان لا تصدقان معاً، ولا تكذبان معاً.

أي أنه إذا صدقت إحداهما كذبت الأخرى، وإذا كذبت إحداهما صدقت الأخرى، فإذا فرضنا صدق القضية (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - فإن القضية (جـ س) - بعض الفلاسفة ليسوا أدباء - كاذبة. والعكس صحيح.

وكذلك إذا فرضنا صدق القضية (ك س) - لا فيلسوف أديب - فإن القضية (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - كاذبة. والعكس صحيح.

وينبغي ملاحظة أن التقابل بالتناقض هو أكمل الأنواع، لأنه يعطي أحكاماً قاطعة، إما صادقة أو كاذبة حتماً، ولا يتضمن أحكاماً غير معروفة كما هي الحال في أنواع التقابل الأخرى.

جـ - التقابل بالدخول تحت التضاد: ويكون بين قضيتين جزئيتين مختلفتين في الكيف: (جـ م، جـ س).

وحكمه: القضيتان المتقابلتان بالدخول تحت التضاد لا تكذبان معاً، ولكن قد تصدقان معاً.

فإذا كانت القضية (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - كاذبة، فإن القضية (جـ س) - بعض الفلاسفة ليسوا أدباء -صادقة. أما إذا كانت القضية (جـ م) صادقة، فإن القضية (ج س) تكون غير معروفة أو مجهولة. وكذلك الحال فيما لو بدأنا بالحكم على القضية (جـ س).

د - التقابل بالتداخل: ويكون بين قضيتين مختلفتين في الكم ومتحدتين في الكيف. (ك م، جـ م). (ك س، جـ س).

وحكمه: إذا صدقت (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - كانت القضية (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - صادقة.

وإذا كذبت (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - كانت القضية (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - غير معروفة.

وإذا صدقت (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - كانت القضية (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - غير معروفة.

وإذا كذبت (جـ م) - بعض الفلاسفة أدباء - كانت القضية (ك م) - كل الفلاسفة أدباء - كاذبة.

وما ينطبق على القضيتين (ك م)، (جـ م) من أحكام، ينطبق على القضيتين (ك س)، (جـ س).

جدول توضيح التقابل وأحكامه

القضية الأصلية وحكمها	حكم القضايا المتقابلة		
إذا كانت (ك م) صادقة	تكون (ك س) كاذبة	(جـ م) صادقة	(جـ س) كاذبة
إذا كانت (ك س) صادقة	تكون (ك م) كاذبة	(جـ م) كاذبة	(جـ س) صادقة
إذا كانت (جـ م) صادقة	تكون (ك م) مجهولة	(ك س) كاذبة	(جـ س) مجهولة
إذا كانت (جـ س) صادقة	تكون (ك م) كاذبة	(ك س) مجهولة	(جـ م) مجهولة
إذا كانت (ك م) كاذبة	تكون (ك س) مجهولة	(جـ م) مجهولة	(جـ س) صادقة
إذا كانت (ك س) كاذبة	تكون (ك م) مجهولة	(جـ م) صادقة	(جـ س) مجهولة
إذا كانت (جـ م) كاذبة	تكون (ك م) كاذبة	(ك س) صادقة	(جـ س) صادقة
إذا كانت (جـ س) كاذبة	تكون (ك م) صادقة	(ك س) كاذبة	(جـ م) صادقة

ثانياً - الاستدلال غير المباشر (القياس)

عرفنا فيما سبق، أن القياس قول مؤلف من قضيتين يلزم بالضرورة عنهما قضية ثالثة، لوجود حد مشترك في المقدمتين يربط بينهما. وتسمى القضيتان بالمقدمتين، وتسمى القضية اللازمة عنهما بالنتيجة. فتكون صورة القياس على النحو التالي:

كل فاسد ضار (مقدمة كبرى)

بعض المشروبات فاسدة (مقدمة صغرى)

بعض المشروبات ضارة (نتيجة)

فالقياس إذن، طريقة من الاستدلال نتوصل فيها إلى الحكم على الجزء بما حكمنا به على الكل الذي يشتمل على هذا الجزء، أي أنه قول قدم له بمقدمات معينة، فنتج عنها بالضرورة حكم نتج عن تلك المقدمات (انظر المثال السابق).

قواعد القياس:

هناك قواعد وضعها أرسطو للقياس تكفل صدقه الصوري، بصرف النظر عن مطابقة نتائجه مع الواقع أو عدم مطابقتها له. وهذه القواعد هي:

أولاً - قاعدتا التركيب:

١ - يجب أن يتركب القياس من ثلاث قضايا: مقدمتان (كبرى وصغرى) ونتيجة. وهي كما في المثال السابق:

أ - المقدمة الكبرى - كل فاسد ضار

ب - المقدمة الصغرى - بعض المشروبات فاسدة

جـ - النتيجة - بعض المشروبات ضارة

٢ - يجب أن يتركب القياس كذلك من ثلاثة حدود، وهي في المثال السابق:

أ - الحد الأكبر (ضار): ويرمز له بالرمز (ك).

ب - الحد الأصغر (المشروبات): ويرمز له بالرمز (ص).

جـ - الحد الأوسط (فاسد): ويرمز له بالرمز (و).

ويشترط في الحد الأوسط أن يأتي في المقدمتين بالمعنى نفسه، بحيث يربط بين الحد الأكبر والحد الأصغر، وإلا كان القياس خطأ لأنه سيشتمل على أربعة حدود بدلاً من ثلاثة، كما في المثال التالي:

كل جبن يؤكل (مقدمة كبرى)

كل هروب من الحرب جبن (مقدمة صغرى)

كل هروب من الحرب يؤكل (نتيجة)

هذا القياس خطأ لأن كلمة (جبن) استخدمت في المقدمتين بمعنيين مختلفين.

ثانياً - قاعدتا الاستغراق:

١ - يجب أن يستغرق الحد الأوسط في إحدى المقدمتين على الأقل. لأن وظيفة الحد الأوسط هي إيجاد علاقة بين الحدين الأصغر والأكبر، فإذا لم يكن مستغرقاً في إحدى المقدمتين، فمن المستحيل أن تكون هناك علاقة بين هذين الحدين، كما يتضح من المثال التالي:

بعض الكرماء محبوبون (مقدمة كبرى)

بعض الناس كرماء (مقدمة صغرى)

بعض الناس محبوبون (نتيجة)

هذا القياس خطأ لأن الحد الأوسط غير مستغرق في المقدمتين (لماذا؟) وبالتالي لم يقم بوظيفة الربط بين الحد الأصغر (الناس) والحد الأكبر (محبوبون).

٢ - يجب ألا يستغرق حد في النتيجة ما لم يكن مستغرقاً في مقدمته، لأنه لا يجوز أن يفيد النتيجة وقوع الحكم على كل أفراد حديها ما لم يكن هذا الحد نفسه قد وقع الحكم على جميع أفراده في المقدمة الموجود فيها.

مثال: كل الشجعان أقوياء (مقدمة كبرى)

كل جندي شجاع (مقدمة صغرى)

كل جندي قوي (نتيجة)

هذا القياس صحيح، ذلك لأن موضوع النتيجة (جندي) مستغرق، وهو حد مستغرق أيضاً في المقدمة الصغرى الموجود فيها.

ولكن إذا قلنا:

كل الشجعان أقوياء (مقدمة كبرى)

لا جندي شجاع (مقدمة صغرى)

لا جندي قوي (نتيجة)

فإن هذا القياس يكون غير صحيح. ذلك لأن النتيجة تفيد استغراق محمولها (قوي)، وهو غير مستغرق في المقدمة الموجود فيها (لماذا؟).

ثالثاً – قاعدتا الكيف

١ – لا إنتاج من مقدمتين سالبتين. فلابد أن تكون إحدى المقدمتين موجبة على الأقل.

مثال:

لا جماد حساس (مقدمة كبرى)

لا إنسان جماد (مقدمة صغرى)

لا إنسان حساس (نتيجة)

هذا القياس غير صحيح، لأن المقدمتين تفيدان انفصال الحد الأوسط عن الحد الأصغر والحد الأكبر، وبالتالي يكون الإنتاج فاسداً.

٢ – إذا كانت إحدى المقدمتين سالبة، فيجب أن تكون النتيجة سالبة، ذلك لأن المقدمة السالبة تفيد انفصال الحد الأوسط عن الحد الأكبر، ولذلك يجب أن تفيد النتيجة هذا الانفصال.

مثل قولنا:

لا غبي متفقه (مقدمة كبرى)

بعض الطلبة أغبياء (مقدمة صغرى)

ليس بعض الطلبة متفقين (نتيجة)

نتائج قواعد القياس

هناك عدة نتائج تترتب على القواعد العامة السابقة للقياس، وهذه النتائج هي:

١ – لا إنتاج من مقدمتين جزئيتين (سواء أكانتا سالبتين أم موجبتين أم إحداهما موجبة والأخرى سالبة).

فإذا كانتا سالبتين – فلا إنتاج منهما لأن الحد الأوسط منفصل عن الحدين الأكبر والأصغر.

وإذا كانتا موجبتين – فلا إنتاج منهما، لأن الحد الأوسط غير مستغرق في المقدمتين.

وإذا كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة - فلا إنتاج منهما، لأن النتيجة تخل بإحدى قاعدتي الاستغراق.

٢ - إذا كانت إحدى المقدمتين جزئية، فلابد أن تكون النتيجة جزئية أيضاً. مثال:

كل كريم محبوب (مقدمة كبرى)

بعض الأصدقاء كرماء (مقدمة صغرى)

بعض الأصدقاء محبوبون (نتيجة)

هذا القياس صحيح، لأنه لو كانت النتيجة (كل الأصدقاء محبوبون) فإنها تفيد استغراق موضوعها (الأصدقاء)، وهو غير مستغرق في مقدمته مما يخالف قاعدة الاستغراق.

أشكال القياس

تتحد أشكال القياس تبعاً لموضوع الحد الأوسط في المقدمات، وعلى هذا تكون للقياس أربعة أشكال ويهمنا من هذه الأشكال الشكل الأول فقط.

الشكل الأول

ويكون الحد الأوسط فيه موضوعاً في المقدمة الكبرى ومحمولاً في المقدمة الصغرى ويعبر عنه رمزياً على النحو التالي:

و - ك (مقدمة كبرى)

ص - و (مقدمة صغرى)

ص - ك (نتيجة)

أهمية الشكل الأول وشروطه:

سنهتم بدراسة الشكل الأول فقط من أشكال القياس الأربعة باعتباره أهم هذه الأشكال جميعاً. وبتطبيق القواعد العامة على هذا الشكل، نجد أنه لابد من توافر شرطين خاصين به هما:

١ - يجب أن تكون المقدمة الصغرى موجبة.

ذلك لأننا إذا فرضنا أنها سالبة، لترتب على ذلك أن تأتي النتيجة سالبة أيضاً (لماذا؟). وعلى ذلك سيكون الحد الأكبر مستغرقاً في النتيجة، ولكنه غير مستغرق في مقدمته، وهذا خطأ (لماذا؟). ولذلك لا يمكن أن تكون المقدمة الصغرى سالبة، فيجب أن تكون موجبة.

مثال:

كل عربي مخلص لوطنه (مقدمة كبرى)

لا ألماني عربي (مقدمة صغرى)

لا ألماني مخلص لوطنه (نتيجة)

هذا القياس خطأ (علل ذلك؟)

٢ - يجب أن تكون المقدمة الكبرى كلية.

وذلك لأنه ما دام يتحتم أن تكون المقدمة الصغرى موجبة، فإن محمولها وهو الحد الأوسط لن يكون مستغرقاً. ولذلك يجب استغراق هذا الحد في المقدمة الكبرى وهو موضوعها، وبالتالي يتحتم أن تكون المقدمة الكبرى كلية.

بعض الأخوة عرب (مقدمة كبرى)

كل الأوفياء أخوة (مقدمة صغرى)

بعض الأوفياء عرب (نتيجة)

وهكذا يتضح أن هذا القياس خطأ (لماذا؟)

ضروب الشكل الأول

إذا حاولنا تحديد ضروب الشكل الأول استناداً إلى الشرطين السابقين (ما هما؟) فإننا نجد أنها أربعة ضروب توصلنا إلى نتائج صحيحة تمثل لنا القضايا الحملية الأربع، وذلك على النحو التالي:

١ - الضرب الأول

ك م	كل طائر ذو أجنحة	(مقدمة كبرى)
ك م	كل عصفور طائر	(مقدمة صغرى)
ك م	كل عصفور ذو أجنحة	(نتيجة)

٢ - الضرب الثاني

ك س	لا غني متواضع	(مقدمة كبرى)
ك م	كل التجار أغنياء	(مقدمة صغرى)
ك س	لا تاجر متواضع	(نتيجة)

٣ - الضرب الثالث

ك م	كل جميل يقتنى لجماله	(مقدمة كبرى)
جـ م	بعض الطيور جميلة	(مقدمة صغرى)
جـ م	بعض الطيور تقتنى لجمالها	(نتيجة)

٤ - الضرب الرابع

ك س	لا دواء يخلو من الفائدة	(مقدمة كبرى)
ج م	بعض السموم أدوية	(مقدمة صغرى)
جـ س	ليس بعض السموم تخلو من الفائدة	(نتيجة)

مميزات القياس وعيوبه

يعتبر الاستدلال القياسي جوهر المنطق الأرسطي، وقد حظي بمنزلة كبيرة في العصور القديمة والوسيطة والحديثة باعتباره أول منهج أقيم للتفكير السليم.

ومن مميزات الاستدلال القياسي ما يأتي:

١ - يعتبر القياس بما يوفره من استنتاج منطقي سليم، المرتكز الأساسي الذي يقرب الدراسات العقلية من الفكر المنظم المتسق مع ذاته، وتنقيته من الفكر الأسطوري أو الخيالي.

٢ - يستفاد من القياس في مجالات علمية كثيرة، كالرياضيات والفلسفة وغيرها من العلوم. فقد حدث مثلاً تزاوج بين المنطق والرياضيات في العصر الحديث أدى إلى نشأة فرع جديد في المنطق هو «المنطق الرياضي أو الرمزي».

٣ - يكمل القياس المنهج الاستقرائي العلمي، وذلك حينما يلجأ الاستقراء إلى التحقق من صدق قوانينه الكلية عند تطبيقها على حالات جزئية لم تكن موجودة قبل صياغة هذه القوانين.

ومن أهم عيوب الاستدلال القياسي ما يأتي:

١ - أدى استخدام القياس، كما وضعه أرسطو دون محاولة لتطويره طوال العصر الأوسط، إلى جمود الفكر لعدة قرون.

ويتضمن القياس معرفة جديدة. فهو لا يأتي بشيء أكثر مما هو متضمن في مقدماته.

٢ - لا يتضمن القياس معرفة جديدة، فهو لا يأتي بشيء أكثر مما هو متضمن في مقدماته.

ويقول ديكارت في هذا الصدد: «إن قياس أرسطو يفسر لي شيئاً أعلمه، ولكنه لا يكشف لي عن شيء أجهله».

٣ - يعتبر القياس في حد ذاته تحصيل حاصل «Tautology» لأن النتيجة متضمنة في المقدمة الكبرى.

٤ - القياس الأرسطي صوري، وليس مرتبطاً بالواقع، لأن اهتمامه ينصب على الصدق الصوري، وليس على الصدق المادي في القضية.

أسئلة للمناقشات

١ - عرّف الاستدلال ثم اذكر أنواعه.

٢ - القضية «بعض القضاة عادلون» صادقة. فما حكم القضايا المتقابلة معها؟

٣ - إذا كانت القضية «كل العملاء أمناء» كاذبة، فما حكم القضايا التي تقابلها بالتضاد والتداخل؟

٤ - هات العكس المستوي من القضايا التالية:

أ - بعض القيم الأخلاقية خالدة.

ب - كل التلاميذ يستفيدون من دراسة الفلسفة.

جـ - لا حر يحب الظلم.

د - كل من لا يؤدي واجبه يعتبر مقصراً.

٥ - هات نقض المحمول من القضايا التالية:

أ - كل الأصدقاء أوفياء.

ب - ليس كل من يعمل الواجب ينال التقدير.

جـ - بعض الفلاسفة أدباء.

د - لا مستعمر يرعى حقوق الشعب.

٦ - ضع القضية التالية «لا مواطنَ حراً يقبل الذل» مقدمة كبرى في قياس من الشكل الأول، ثم أكمل القياس، مبيناً حدوده، وشروط الاستغراق فيه.

٧ - اجعل القضية التالية «بعض العرب أحرار» نتيجة في قياس من الشكل الأول ثم بيّن الحدود المستغرقة فيه.

٨ - «لا دولة استعمارية تسعى لتحقيق السلام القائم على العدل» - اجعل هذه القضية مقدمة كبرى في قياس من الشكل الأول، ثم اذكر حدوده، وسبب إنتاجه.

٩ - كوّن قياساً من الشكل الأول بحيث تكون القضية «كل سقيم الوجدان ضعيف الخيال» مقدمة صغرى فيه، ثم اذكر شروط الكيف في هذا القياس.

١٠ - علل ما يأتي:

أ - لا إنتاج من مقدمتين جزئيتين.

ب - لا إنتاج من مقدمتين سالبتين.

جـ - لا إنتاج من مقدمة كبرى جزئية.

١١ - علل ما يأتي:

أ - القضية الجزئية السالبة لا تصلح مقدمة في قياس من الشكل الأول.

ب - لا إنتاج من مقدمة صغرى سالبة.

جـ - القضية التي تبدأ باسم «العلم» قضية كلية.

١٢ - ضع العبارة التالية في صورة قياس من الشكل الأول ثم بيّن مقدمتيه ونتيجته وحدوده: «كل الطلاب يقنعون بسهولة لأنهم مثقفون، وكل المثقفين يقتنعون بسهولة».

١٣ - قاسٍ - عادل - إنسان

كوّن من هذه الحدود قياساً من الشكل الأول بحيث تكون مقدمتاه مختلفتين في الكم، متحدتين في الكيف، ثم اذكر شرطي التركيب فيه.

* * *

أودع بمكتبة الوزارة تحت رقم (٤) بتاريخ ١٦ / ١ / ٢٠٠٨م

فيلمز Films
شركة مجموعة فور فيلمز للطباعة
Four Films Printing Group Company
تلفون: ١٥٠ ٢٥٨٢ - فاكس: ٢٥٨٢٣٨٣

4 Films فيلمز
شركة مجموعة فور فيلمز للطباعة
Four Films Printing Group Company
تلفون ٠١٠-٢٨٨٠٠٠ - فاكس ٢٨٨٢٩٨٢